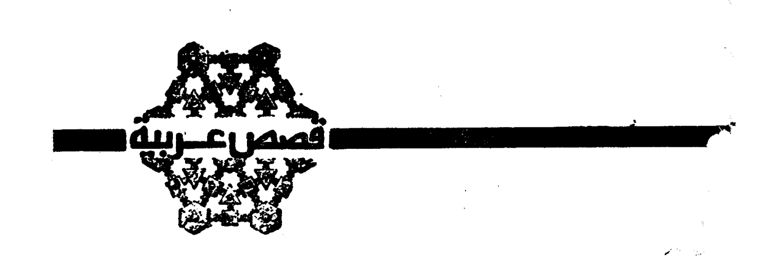
رجل مختلف

سعيد سالم



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٦



رجل مختلف

التحقيـــــق

ارتفع ضجيج الآلة الرابضة كوحش اسطورى أمام باب العنبر بينما راح ذراعها الضخم يرتفع ببطء معلقا فى خطافيه الكبيرين ماكينة اللصق العجوز التى توقفت منذ عامين بعد أن ظلت تدور لتسعة أعوام بلا توقف . تجمهر حول الآلة الرائعة جمع كبير من العمال بدوا الى جوارها كالأقزام . طغى ضجيجها على أصواتهم لكن ضخامتها لم تحجب عن عين الرائى ملامح وجوههم أو تحركات أيديهم أو مغزى نظراتهم . على رأس الجمهرة وقفت سيدة تتسم معالم وجهها بالغلظة ، وتكشف طبيعة وقفتها فى وضوح عن تمتعها بفائض كبير فى كل الأشياء . كان واضحا أنها أكثر الموجودين تمتعا بالهيبة والاحترام . وقف الى جوارها مدير المصنع ومدير المبيعات ورئيس لجنة المزاد الذى بيعت فيه الماكينة ضمن «خردة» المصنع .

حوصـــــرت الماكينة العجوز بين الخطافين كفريسة متهالكة بين فكى نمر ضار منهوم الى اللحم ، بدأت الآلة الرائعة فى تعديل وضعها أمام باب العنبر بحركة جانبية بطيئة تفرق على أثرها بعض العمال ليفسحوا لها الطريق . مر أمامها عامل ممسك بمقشة مهترئة يكنس بها مخلفات المصنع فى تراخ مقصود ورقبته ملتوية فى اتجاه الماكينة المعلقة بين الخطافين . نهره مدير المصنع فانصرف فى

تباطؤ صريح لكنه لم يغير من وضع رقبته . توقف « موتور » الآلة الرافعة . بدت الهمهمات مسموعة .. تبادلت السيدة حديثا جانبيا مع رئيس اللجنة .

* * *

من الشرفة العلوية لمكتب مباشر العمال كان المشهد مرئيا بوضوح تام . جلس المباشر الى مكتبه الصغير وأمامه جلس موظف التحقيقات يتفرجان على ما يدور تحتهما فى انتظار قدوم العامل « محمد أبو الحديد » الذى أرسلا فى استدعائه من المصنع للتحقيق معه بموجب المذكرة الواردة الى المباشر من ادارة الشئون القانونية .. قدم المباشر كوبا من الشاى للمحقق وقال له :

ـ خســـــارة

قال المحقق دون أن يفارق الجمود وجهه :

ـ كل اجراءات البيع قانونية لا تشوبها شائبة

ـ لكن الماكينة يمكن أن تدور وتنتج

ـ فلماذا هى متوقفة منذ عامين ؟

ـ يقولون أن قطع غيارها غير متوافرة وكذا عمالتها الفنية كما أنها لم تعد تدر للشركة ربحا

ـ لست مقتنعا بالسبب الأول

ـ ولست مقتنعا بالسببين

عاد الجمود الى وجه المحقق بعد أن كاد يتبدد وتساءل بهدوء :

ـ لماذا لم يحضر أبو الحديد ؟

ـ لقد ارسلت فى استدعائه أمامك

ـ ابعث بعامل آخر فليس لدى وقت .

* * *

ارتفع ضجيج الآلة من جديد .. صرخ مدير المصنع فى العمال ان يذهبوا الى اماكن عملهم وهددهم بتوقيع الجزاء عليهم . أستجاب عدد كبير منهم . دخلوا الى العنبر وجميعهم يلتفتون الى الوراء . كانوا يلغطون بكلمات يستحيل أن تستبين حروفها تحت ضجيج الآلة . سها على مدير المصنع أن يلحظ بقية العمال الذين لم يستجيبوا لأمره بمغادرة المكان .. كان يتبادل حديثا هامسا مع رئيس اللجنة . فى لحظة خاطفة تعلقت كل الأبصار بالخطاف الأيمن للآلة الرافعة ، تدافع أتباع السيدة المهيبة من المختصين فى حركة محمومة لانقاذ الموقف . تضافرت الجهود بعودة عمال العنبر من جديد — على مرأى من مدير المصنع — وأعيد تثبيت الجزء الأيمن من الماكينة العجوز فى خطافها بعد أن كادت تسقط . قال أحد العمال بصوت غير مسموع :

— الماكينة لا تريد الخروج من المصنع .

وقال آخرون بأصوات لا تزيد عن صوته وضوحا :

— ولن ندعها تخرج بالفعل

— ليس بمقدورنا أن نفعل ذلك .. فلنكن واقعيين

— لقد نفحتنا السيدة الكثير حتى نسهل اخراج الماكينة من موقعها الضيق

— لم نحصل الا على الفتات

— لا ترفع صوتك فالبهوات مازالوا واقفين

— اللعنـــة !

ثم تبادلت السيدة المهيبة حديثا جانبيا مع مدير المصنع .

* * *

قال المحقق دون أن تبدو عليه أمارات الغضب :

ــ هل انشقت الأرض فابتلعته ؟

اجابه المباشر وقد انتابه قلق شديد :

ــ لقد وقع عليه رئيسه الجزاء لتركه مكان عمله بدون اذن .

ــ المهم أن يحضر الآن فأمامى العديد من التحقيقات مع عمال آخرين ..

ــ سأذهب بنفسى للبحث عنه

ــ اسرع فالسماء على وشك أن تمطر

انصرف المباشر وانفرد المحقق بمتابعة المشهد ، لم يعبأ أحد الواقفين برذاذ المطر . قدم مدير المبيعات مقعدا للسيدة فجلست تحت ساتر . وقف الى جوارها . شعر المحقق بحركة فالتفت الى الخلف ليجد عاملا يسأل عن المباشر .

ــ ذهب يبحث عن « محمد أبو الحديد »

ــ المصنع كله يبحث عنه ، لكنى أريد المباشر فى أمر مهم .

ــ ما هو ؟

ــ خط المجارى مظلم تماما منذ عشرة أيام ونريد مصـــباحا جـــديدا ..

ــ وأين المصباح القديم ؟

ــ كسره أبو الحديد دون قصد حين كان يســـــلك المجرى بالسيخ الحديدى ، بدت علامات دهشة مفاجئة على وجه المحقق . صمت قليلا قبل أن يتساءل :

ــ فلماذا انتظرتم عشرة أيام دون تركيب مصباح جديد ؟

ـ قالوا ان المصباح الجديد لن يركب الا بعد التحقيق لأنهم يشكون فى سرقته ، والمجرى مسدود الآن والعمال الذين يقومون بتسليكه تائهون فى الظلام .

القى المحقق بنظرة سريعة ـ وان كانت متفحصة ـ على ملف التحقيق الموضوع امامه . قلب بعض صفحاته . سرح بفكره قبل أن ينتبه الى أن العامل مازال واقفا أمامه ! ثم قال له :

ـ حسنا .. عد الى عملك الآن وسأخبر المباشر بذلك حين عودته .

❋ ❋ ❋

حين بدأت الآلة العملاقة فى التحرك ، انفلت الخطاف الأيسر من موضعه القابض على الجانب الأيسر من الماكينة ، وسمعت صيحة مجلجلة اخترقت ازيز الموتور المزعج :

ـ الله اكبر !

علا صوت السيدة غاضبا بعد أن غادرت مقعدها فأصدرت بعضا من الأوامر والنواهى امتثل لها الجميع على الفور ثم شرعوا فى اعادة تثبيت الماكينة بين الخطافين .

غادرت السيدة المكان بصحبة المديرين ورئيس اللجنة متجهين الى مبنى الادارة .. وبدأت الآلة الرافعة تتحرك خلفهم .

❋ ❋ ❋

اقتحم المكتب مجموعة من العمال يحملون على أكتافهم زميلا لهم عارى الجسد تماما . رأسه مدلاة بين صدورهم وعلى فمه تناثرت رغوة بيضاء . فاحت فى المكان رائحة كريهة أشبه برائحة المجارى العفنة . وضعوه على أرض الحجرة وراحوا يمسحون جســــده ويلبسونه ملابسه . اقترح احدهم أن يجرى له تنفسا صناعيا . اقترح آخر أن يقلب على رأسه حتى يخرج من فمه ما استقر فى جوفه من ماء المجرى .

ــ كتب له عمر جديد .

ــ لم يجرؤ احد غيره على النزول الى المجرى لازالة اسباب الانسداد ..

ــ حين سحب بيده العائق هاجمته مياه الصرف كالفيضان .

ــ كاد التيار ان يسحبه الى المصرف العمومي لولا ستر الله ..

ــ يجب ان يمنح مكافأة تشجيعية

ــ المكافىء ربنا

ــ ان يعبأ به احد

ــ يجب ان ينقل الى المستشفى على الفور

وقف المحقق يرقب الواقعة بكيانه . تاه فى معالم وجه ابى الحديد المميزة وخيل اليه انه لن ينساها طول حياته . وقف ابو الحديد فجاة ثم سقط متهالكا على احد المقاعد .

* * *

اقتربت الآلة الرافعة من بوابة الخروج من المصنع .

فتح باب مكتب مدير المصنع . خرجت السيدة المهيبة . صافحها مدير المصنع ورئيس اللجنة ومدير المبيعات ووجوههم تنطق بآيات البشر والامتنان .

وقال المحقق للمباشر :

ــ اعتقد اننى لن اتمكن الآن من اخذ اقواله . سوف احضر بعد عودته من المستشفى ..

وكانت الآلة الرافعة العملاقة قد غادرت المصنع حاملة بين خطافيها الكبيرين آلة اللصق العجوز ــ التى توقفت منذ عامين بعد ان ظلت تدور لتسعة اعوام ــ كفريسة متهالكة بين فكى نمر ضار منهوم الى اللحم .

الزيـــــارة

فى الرابعة من عصر يوم قائظ ، كان حسن أفندى السيد عائدا لتوه من عند عم هربدى البقال . سدد له دين الشهر المنصرم وصرف تموين الشهر الجديد ، ثم مر على بسيونى الدخاخنى فدفع له حساب السجائر التى نفث دخانها فى هواء ذلك الشهر ، وحمل حاجياته عائدا فى أمان نسبى الى بيته .

وقف على ناصية الشارع الفسيح . تاهت نظراته بين متابعة ذلك الكم الهائل من العربات التى كانت تنهب الطريق بسرعة توحى بأن الحياة تقترب بعد لحظات من نهايتها . فتحت الاشارة . انجز المهمة الكريهة .. مهمة عبورالطريق . قال فى سره وانفاســـــه تتهدج « الحمد لله » . وضع لفافاته جانبا بغية معرفة الوقت .. فزعت عيناه كالبرق من عقربى الساعة الى مصدر الصوت .. زئير محموم لعجلات تحتك بالأرض ، وجسد مخلوق يهوى اليها .

كان بنيته أن يتناول غداءه مع زوجته وأولاده الأربعة . يتمدد على الكنبة . يشرب شاى العصر الثقيل ، ثم يتوجه الى أبى قير لزيارة صديقه المريض الذى استغنى صاحب العمل عن خدماته اثر اصابته فى حادث بالطريق .

توقفت العربة بعد أن صدرت آهة من ذلك الجسد ، دلت على أنها مرت فوقه تماما .. كان فى نيته أيضا أن يدس فى يد صديقه ـ فى خلسة من ذويه ـ قليلا من الأوراق المالية الصغيرة بعد أن تكون أم أولاده قد اقتنعت بموقفه هذا من صديقه وزميله وأعدت نفسها لمواجهة شهر عصيب .

بجواره ـ وفى نفس اللحظة ـ عبر معه الطريق شاب فى حوالى الثلاثين . كاد يصطدم به على الطوار بفعل السرعة والتلهف على الوصول الى بر الأمان . « أشهدوه » . فكر بالاعتذار له لكن الشاب لم يعره التفاتا . تجاهل الخصلة البيضاء المدلاة على جبينه والتى دائما ما تعبث بها أم الأربعة وعلى شفتيها ترتسم ابتسامة قانعة . شهق فزعا . أهمل لفافاته . طارت روحه الى حيث تكومت أجساد كثيرة حول الجسد الممزق . بعض الأجساد تحركت للعمل الفورى بالبحث عن جريدة يغطون بها الجسد الذى فارقته الروح ولم تعبأ بالكلمات . أجساد أخرى كانت تتكلم فقط .

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .. مات الرجل !

ـ أطارت الدنيا ؟ .. لم هذه السرعة الجنونية ؟

ـ الاشارة مغلقة

ـ بل مفتوحة لتوها

ـ كان الطريق للمشاة ، ولا قيمة هنا للآدميين

ـ الشرطى هو المسئول

ـ أجله جاء يا جدعان

ـ كان يمشى مسطولا

ـ نلتمس المعذرة للمرحوم .. كان يحدث نفسه والله أعلم .

حين يجلس حسن افندى الى مكتبه فى العمل فانه يهب عقله وروحه لخدمة صاحب العمل . يستقبل العملاء بوجه بشوش .. لا يذكر أبدا نظرة عم هريدى البقال المتسائلة ، ولا تعليقات بسيونى الدخاخنى التى تثقب أذنيه مذكرة اياه بضرورة دفع ثمن الدخان الذى بدده فى الهواء حلقات حلقات ، وانما هى حسابات دقيقة . فواتير مهمة ، يحملها بنفسه من مكتب الى آخر .. لا يعتمد على الساعى أو خلافه . يبحث عن اعمال اخرى يقوم بها مساعدة لزملائه ، بنفس الكيفية التى يبحث بها عن أفراحهم ومآسيهم ليشاركهم اياها . يقولون عنه دائما :

— حسن أفندى هذا رجل انسان

كان بحاجة قاتلة الى أن يترجم انفعاله اللحظى الى كلمات . لم يجد أحدا يوجهها اليه سوى ذلك الشاب الذى عبر معه الطريق . كانت أناقة الشاب — حامل الحقيبة الجلدية الفاخرة — تزيد عن حد الاعتدال ، فمجموع أثمان ملابسه وحذائه وحقيبته بحسبة سريعة من حسابات حسن أفندى لا تقل عن ثلاثمائة جنيه .. مرتبه لثلاثة أشهر . قال له على الفور :

— أرأيت كيف ... ؟ ..

كان جسده ينتفض من شدة التأثر والجثة تبعد عن موقعه من الطوار بمقدار ثلاث خطوات .. انصب ناظره على الشاب الذى لم يلتفت اليه ولا الى العربة ولا الى الجثة ولا الى كومة البشر المتكالبة على العربة . ففر فمه دهشة ولم يكمل جملته « أرأيت كيف ؟ .. » .

أما حين يجلس حسن أفندى السيد الى أولاده بعد صلاة العشاء فانه يسحب أنفاس سيجارته بسعادة ترده الى طفولته . ومن خلال سحب الدخان المنعقدة فى سماء الغرفة الصغيرة النظيفة،

يقص عليهم قصصا حفظها عن الانبياء والرسل موحيا اليهم بفطرته وخبرته أن سعادة الانسان مرهونة بسعادة أخيه الانسان وأن من عاش لنفسه ما استحق ابدا أن يولد .

آلمته الصدمة . الشاب يتجاهله . اللفافة مازالت ملقاة على الطوار . لا يفكر فيها الآن كما لم يفكر فى عم هريدى البقال أو بسيونى الدخاخنى بعد أن سدد لهما ديونهما عن الشهر المنصرم . تحول بكيانه الى الشاب . ركز على وجوده كل حواسه . له عينان فهو مبصر . أذناه كأذنى أرنب ، فقد سمع .. لماذا اذن ؟ .. تأمل ملامح وجهه . جامدة ؟ متحجرة ؟ .. أبدا . تكاد تكون ملامح عادية لانسان يحس فيفرح ويتألم ، لكنه لاحظ أن أنفه المدببة تتجه بأرنبتها عاليا فى حدة . أراد أن يفاتحه فى المسألة . بوده لو يسأله :

ـــ من أى طينة خلقت أيها الانسان ؟

كان الشاب يواصل طريقه فى خطى لاهى مسرعة ولا هى مبطئة .. انه يمشى . تمنى أن يقول له :

ـــ يا اخانا ، لقد مات الرجل مرتين ولم يتحرك فيك ساكن

حمل لفافته .. مازالت العربات تمرق متفادية منطقة التجمهر . العيون تطل من النوافذ بنظرات شبقة نهمة .

ـــ ياناس .. لقد نقصت الانسانية واحدا

لابد أن صديقه المريض يئن الآن من شدة الألم ، ويعانى من عذاب الحاجة .. وأبو قير يبعد كثيرا عن هذا الشارع اللعين .. والأولاد ينتظرونه لتناول الغداء .. وصـــاحب العمل يحتج على تدخله لنصرة صديقه الذى فصله من العمل .. وهذا العصــــر يسمونه بعصر السرعة .

حضرت عربة النجدة . بدأ الجمع فى التشتت . واصـــــل متابعة الشاب ، بينما كان مشدودا بكيانه الى الخلف . يرقب ما يجرى هناك بالتفاتات سريعة من خلال خطواته المتسائلة من حين الى آخر ، والشاب يسير بخطوة هادئة . منتظمة واثقة . لا تنفعل ولا تتغير . لكن لابد أنه سينظر خلفه ولو مرة واحدة ليشارك بأى من حواسه فيما يجرى هناك .. ذلك الذى كان منذ لحظات .. هنـــــا .

كان قد قرر أن يناقشه فى المسألة . صحيح . لكن قراره قد استحال الآن تنفيذه ، اذ بعد الشاب عن الموقع بمسافة ليست باليسيرة . كف حســـن أفندى عن النظر الى الوراء . حث خطاه متابعا الشاب وقد استبد به جنون الترقب .. سينظر الشاب خلفه لا محالة .. سيلتفت ولو لثانية واحدة الى الوراء ليسهم ولو بدرهم من المشــــــاركة . اقتربا من طريق فرعى تختفى من خلفه معالم الواقعة .

التفت أيها القلب الأصم . التفت . ستموت يوما ميتة الكلاب خطوات قليلة وينعطف الشاب فيما بدا له الى اليسار . خطرت له فكرة أن يهم بقتله .. استغفر ربه ثلاثا ومنى نفسه بالصبر . تراءى له طيف أمل طفيف .

لكن الشاب مضى ، ولم يلتفت .

قال حسن أفندى لنفسه والتصميم يشع من عينيه « مع هذا فاننى ســـأتناول غدائى مع الأربعة وأمهم ، ثم أرتخى على الكنبة وأرتشف شاى العصر الثقيل .. لأتوجه بعد ذلك الى ابى قير لزيارة صديقى المريض الذى استغنى صاحب العمل عن خدمته اثر اصابته فى حادث بالطريق » .

الأســــــرى

لحظة حساسة من لحظات المواجهة مع النفس. الملل القاتل حين ينشب مخالبه فى لحم الحياة ، اليأس الشديد من احتمال أن تجود الحياة بجديد ذى مذاق . افتقاد الفرحة والدهشة والانتظار والترقب والاجتهاد والأمل . لا تأتى المفاجآت والأوامر العليا الا بما ينغص ويكدر .. ومادام الأمر كذلك فما هو معنى الاستمرار فيما هو مستمر الآن ؟ .. بلادة أشبه بالموت تقود خطواته .. تمضى بأيامه فى رتابة كالصقيع .. أنه يفكر منذ أشهر فى تقديم استقالته من هذه الوظيفة وترك هذه المهنة . تململ على مقعده وفكر فى القاء أكوام الأوراق الماثلة أمامه فى صندوق القمامة وليكن ما يكون . لم يجرؤ على تنفيذ هذه الفكرة نتحى الأوراق جانبا وجذب شهيقا عميقا .. انبعث من صدره وبين ثنايا زفيره شعور محدد بأنه لا يعرف ماذا يريد .. وكان هذا سر تعاسته ..

* * *

باندفاع واثق اقتحم مجهول عليه غرفته . جلس بسرعة على أحد المقاعد المواجهة للمكتب . وضع ساقا على ساق ، ثم قال بنفس الثقة التى اندفع بها :

ـــ انا الدكتور هتلر أبو سعده

خلع رئيس التحرير نظارته . وضعها بتؤدة أمامه .. تفحص بخبرة سنواته معالم الوجه الجالس أمامه . اصطنع على شفتيه ابتسامة ثم قال :

— أهلا وسهلا يا دكتور ..

قدم له سيجارة . سحبها هتلر بين سبابته ووسطاه بسرعة مذهلة . لم ينتظر أن يشعلها له فأشعلها على الفور بكبريته وجذب منها نفسا عميقا ولم يتكلم .

— أهلا يا دكتور ..

— اسمع .. أنا رجل صريح

واصل رئيس تحرير المجلة الأدبية الشهيرة دراسة خريطة وجهه ، وكان يبدو أنه شغوف بهذه الحالة .

— ولست أحب الاطالة فى الحديث

— مثلى تماما يادكتور

— اتفقنا

— طلبات السيادة

— معى مقال أدبى تافه يصلح للنشر بمجلتك .

منظره جدير بلفت الانتباه اليه . أنف طويل مدبب . ربطة عنق ضخمة . حلة قديمة ضيقة . ذقن عريضة غير حليقة . نظارة طبية سميكة العدسات .. حركات عصبية متعاقبة من خلال وضع الساق فوق الأخرى ثم مبادلتها مرة كل دقيقة . نظـــرات تائهة — شديدة الوضوح — الى كل الأشياء .

— مقال أدبى تافه ؟؟

ـ نعم ، لا يقلّ تفاهةً عما تنشرون من مقالات لكبار الكتاب .

فكر قليلا فى الاعتراض على قوله ، لكنه آثر أن يواصـــل معه الحوار متجاهلا ما قال .

ـ أتسمح لى بقراءتها ؟

ـ قبل قراءتها يجب أن نتفق

ـ عـــــلام ؟

ـ الأجــــــر

ـ أحدده بعد القراءة

ـ على العموم أنا لست أنتظر الأجر بهذه الأهمية .

ـ أنا أعلم هذا يا دكتور

ـ لا داعى للمجاملة .. كيف لك أن تعلم وانت ترانى لأول مرة ؟!

لم تكن المرة الأولى التى يواجه فيها أحد النماذج الضالة من الأدباء والفنانين . لكل حالته الخاصة والميزة . كلهم عنده أشباه مجانين ، وهو يعتقد أحيانا أنه يشاركهم هذا الجنون .. ولهذا يحبهم .

ـ أنا فقط أستعيد قولكَ منذ قليل بعدم اهتمامكَ بالأجر .

ـ لن أعطيك المقالة الا بعد نشرها بالمجلة

ـ وكيف تنشر دون أن يكون النص موجودا ؟

ـ الا يكفيك أن الله موجود ؟؟

ـ هذا شىء مؤكد ، لكن ..

ـ ولهذا تجدنى بلا سروال داخلى ، ومع هذا فأنا سعيد جدا .

ــ رائع !

ــ لكنى فى منتهى التعاسة . ماذا قلت عن الأجر .. هه ؟ . اننى احتاج بشدة الى بضعة جنيهات .

ــ أين المقالة يا سيدى ؟

ــ المقالة فى جيبى الأيمن ولكن يمكننى الاحتفاظ بها واعطاؤك ما بجيبى الأيسر ..

ــ مقالة أخرى ؟

ــ بل همك وهمى والظلام .

حار الرجل فى أمره . هكذا بدا على وجهه . لكنه كان ودودا صبورا . كما أن النموذج الماثل أمامه قد استهواه تماما ، وربما اكتسب تعاطفه أيضا .

ــ هات ما تريد أن تنشره

ــ أولا لم اقل اننى أريد أن أنشره

ــ فماذا قلت ؟

ــ قلت فقط انه يصلح للنشر بمجلتك

ــ أنا آسف . هات هذا الشىء الذى يصلح للنشر بمجلتنا حتى ننشره .

ــ وما الفائدة ؟ .. هل تعتقد أن أحدا هنا يقرأ ؟

ــ كثيرون

— لاداعى للمغالطة يا أستاذ . مجلتك الشهيرة لا توزع أكثر من ربع نسخها فى الجمهورية باكملها ، هل جربت الحب ؟

— نعم

— ما رايك فيه ؟

— جميـــــل

— لكن ابنى مريض . . حالته تزداد سوءا يوما بعد يوم .

— لا حول ولا قوة الا بالله

— والمقالة صالحة للنشر وأنا لا يهمنى الأجر . . تأكد من هذا . .

— سننشرها بعد قراءتها ، وسنعطيك اجرا مناسبا .

— للمرة الثالثة ارجوك . . لا تغالط فى ذكر الحقائق . كم هو الحد الأقصى لأجر المقال فى أشهر مجلة أدبية ؟

— عشرون جنيها للكتاب القدامى المحترفين

— أعرفت أنك تغالطنى ؟

— كيف ؟

— لأن اية راقصة تتقاضى عشرات أضعاف هذا المبلغ لو تمايلت يمينا ويسارا وكشفت عما بين فخذيها لربع ساعة فقط . . أفهكذا يصبح الأجر مناسبا ؟

— هذه قضية أخرى يا دكتور . أرجوك أعطنى المقالة .

— أنت متعجل فيها يبدو . تشعر أنى أضيع وقتك الثمين . . هـــه ؟

— أبدا ..

— يجب أن تعلم اننى اتعمد هذا ، لأن وقتك ليس ثمينا الى هذه الدرجة ، واسمح لى أن اقول انك وكل رؤســــاء التحرير لا تتمتعون بثقتى تماما .

لم ييأس من مواصلة الحوار معه . دفعه فضوله المهنى الى استمرار المناقشة بحثا عن جديد فى شخصيته ، فمن المؤكد انه سيكتشف فيه شيئا مثيرا . ربما كان احد ابطال عمل قصصى جديد له . أو ربما كان موضوع مقال خطير عن ضحايا الفن والأدب .

— لماذا لا تثق بنا ؟

— لأن المقابل الأوحد لتشبثكم بمقاعدكم المسوسة هو مداهنة بعض الأفراد المعدودين فى هذا الكون العظيم الاتساع .

— هذا حكم عمومى جائر

— لو تخيلت هؤلاء الأفراد لحظة جلوسهم الى دورات المياه ليخرجوا ما بأمعائهم ، لما كنت مداهنا مثل الآخرين .. ما رأيك ؟

— كيف ؟

— ان ما يخرج منهم يخرج منك ، فالكل سواسية ، والصبر جميل ، وعاش الوطن .

سيطر الذهول على الرجل . تابعه وهو يرتشف شايا طلبه له . أراد أن يقول شيئا ، لكن هتلر قال فجأة كمن يسترجع حلما جميلا :

— ياسلام .. أعظم شاى فى العالم لا تشربه الا من يد العسكرى البلغارى .

ـ هل زرت بلغاريا ؟

ـ لا .. لماذا ؟

ـ اذن كيف ..

ـ لا تقاطعنى .. العسكرى البلغارى والعسكرى المصرى والعسكرى الأمريكى مثلى تماما ..

ـ آراؤك غامضة جدا يا دكتور ..

ـ المشكلة الأساسية هى نشر ما يكتب وقراءة ما ينشر ، ثم ما ينبغى أن يحدث من بعد ذلك وهو المهم .

ـ مزيد من الوضوح يا دكتور هتلر من فضلك

ـ انا لم اغادر مصر فى حياتى . لكنى لا أرى جدوى من اى شىء حول المحيط البيضاوى ، فبعد أن يعود العسكرى من الحرب وبعد أن ينشر الكاتب مقاله لا يحدث شىء اطلاقا .. تصور !!

خيل اليه انه مخمور . انتقل الى مقعد بجواره لم يشم رائحة خمر تنبعث من فمه . ربما كان مسطولا .. لكن الشىء الذى لاشك فيه انه مخلوق غير طبيعى ، وأول دليل على هذا هو اسمه العجيب .

ـ قلت لى ان اسمك الدكتور هتلر ابو سعده .. أليس كذلك ؟

ـ هز رأسه موافقا ..

ـ آه .. ولكن .. فيم حصلت على الدكتوراه ياترى ؟

— فى مساحة النقطة ..

— .... !!

— عيب عليك أن تندهش هكذا يا رجل . أنت مفكر كبير ولا تجوز لك الدهشة ، فلكل شىء مساحته وأبعاده حتى لو كان هذا الشىء نقطة .

— أنت اذن عالم رياضة ..

— أنا بائع جرائد

— بالدكتوراه ؟!

— ليس من الضـــــرورى أن تكون الدكتوراه من احـــدى الجامعات . أنا الذى منحتها لنفسى عن جدارة واستحقاق .

— آه .. ولماذا اسموك باسم هذا الرجل النازى ؟

— من هم الذين اسمونى ؟

— اقصد أبويك

انفجر هتلر فى ضحكات متصلة متواصلة حتى شك رئيس التحرير فى قواه العقلية شكا مبينا . عاد الى مكتبه والضحك لم ينقطع .

بدأ يضحك هو الآخر ، لكن عينيه اتجهتا الى قرص التليفون القابع على مكتبه ثم انتقلتا — لا ارديا — الى ساعته ، ثم عاد بهما الى جليسه المفاجىء وقال له :

— لماذا تضحك هكذا ؟

— اضحك لأن احدا لا يجوز له أن يسمينى . لقد اسميانى

بعقلٍ تقريبا أو أظن أنه كان اسما آخر قريب الشبه بهذا .. لكننى لم أحب هذا الاسم ، فغيرته بنفسى .

— أنا لم أعرفْ حتى الآن ماذا تريد يا سيد عقلْ .

— لأول مرة تصدقَ معى منذ جالستكَ .

— كيف ؟

— لاننى لا أريد شيئا .

قالها وغادر المكتب مسرعا بنفس ثقته فى اقتحامه .. فجأة وبلا تقدمة . ظل رئيس التحرير محملقا فى باب المكتب بعد اصطفاقه .. تنبه الى نفسه بعد فترة زمنية لا تعد يسيرة .. جذب من الهواء نفسا طويلا جدا .. عاود النظر الى أوراقه أعاد ترتيبها .. وواصلَ العمــــل ..

٥

الجـذر والأطـراف

ثلاث حقن مخدرة داخل الفك ، ثم استسلم بكامل ارادته لكماشة الطبيب وبدات عملية انتزاع ضرس العقل .

الآلة القاطعة تدور بسرعة هائلة . لا تستطيع العين متابعتها .. كسر من الثانية طارت فيه سبابتى وراحوا يبحثون عنها فى كل مكان . فى المستشفى سألت عنها بالحاح . الاجابات نظرات تستجدينى النسيان .

ما الفائدة من البحث عن شىء فقد وجوده ؟ .. لكنه جزء من تكوينى طالما أنا كائن فى هذا العالم الكبير ..

ملايين الأذرع والسيقان والرؤوس طارت فى كل زمان ومكان. لكن أين راحت سبابتى ؟ .. قانون بقاء المادة يقول باستحالة اختفائها ، وأنا أريدها رغم يقينى من لاجدواها بعد أن فصلت عن جسدى فى لحظة سهو حقيرة . لم أعد أذكر فيما كنت أفكر فى هذا الكسر من الثانية . ربما لم أكن أفكر فى شىء ، فلطالما داهمتنى هموم ثقيلة ويدى تعمل بالآلة دون أن أصاب بأذى . كيف أشير الآن الى شىء بلا سبابة وكيف أمسك بآلة أو ريشة أو قلم وكيف تتواءم نفسى مع يد بغير سبابة ؟!

بالرغم من قوة تأثير المخدر الا انه كان يصارع شعورا عميقا بالالم يسرى فى تضاعيف جسده بأكمله فيما عدا المنطقة المخدرة ، ويبدو التوتر الشديد على وجه الطبيب . يشد الضرس بقوة خرافية كما لو كان ينتزع قطعة من الصلب تزن عدة أطنان . الضرس مصر على التشبث بموضعه الذى لم يفارقه منذ آلاف الأعوام رغم أن عمر المريض لم يتعد الأربعين . استبدل الطبيب بكماشته الرهيبة كماشة أخرى أكبر حجما وقد برزت عيناه من محجريهما واتسعت حدقتاهما عن ذعر مخيف .

خرجت من معمل التحليل الطبى حاملا صك الموت بين يدى . فجأة وبلا سابق تقدمة لم أعد رجلا . الاداة بكاملها موجودة لكنها فقدت الروح .. انتهى عهد اللذة والاحساس بشهوة الحياة .. تبدد حافز جوهرى للوجود لا تعوضه كنوز الدنيا . خيم الشعور بالموت على كل لحظة وفعل وموقف وحركة . كيف حدث هذا وما السبب ؟ .. قبل أن تفارق روحها كنت أرى فيها — الى جانب المتعة الفائقة — رمزا للنزول وأنا أعشق الصعود . سبابتى كانت تشير دائما الى فوق . أصبح النزول حقيقة كالصعود تماما وعاش الموت داخل موته .

تمكنت الكماشة من رأس الضرس . استعان الطبيب بالمرض وراحا يشدان معا . تصبب العرق على جبين الطبيب وازداد جحوظ عينيه . بدأ الضرس يتخلى عن موقعه ، أو هكذا خيل الى الطبيب. ظهرت رأس الضرس قابعة بين فكى الكماشة . لم يبق الا سحبة أو سحبتان ليستأصله من جذره . واصل الشد . تجلت بدايات الجذر . بدأ الطبيب يرتعد . لعلها الحالة الأولى بين بنى الانسان أن يطول الجذر الى بضعة سنتيمترات .

كان الطريق مظلما والساعة متأخرة من الليل . عائدا الى

منزلى .. انتابنى خوف شديد مفاجىء لا معنى له . تصاعدت حدته الى درجة مخيفة وراحت ضروسى تصطك ببعضها . مر بجوارى شرطى المنطقة فلم أشعر بالأمان . انعطف يسارا فواصلت مسيرتى بخطوات مسرعة كما لو كان العالم بأسره يطاردنى . هرولت . ظهر مخلوق أمامى فجأة . كان قادما من شارع جانبى ضيق . وجهه مخيف ومشيته مترنحة . توقفت لاإراديا أمام نظراته الصارمة التى بثها فى عينى . أخرج من جيبه مدية ورفعها فى وجهى بلا سبب . حاولت أن أصرخ فلم تسعفنى حنجرتى . تمنيت أن يغمى على أو أن أصاب بشلل هيســـتيرى يمنعنى من الحركة رغم يقينى من هلاك محقق . لم أخاف هذا الانسان ؟ ولم كنت خائفا قبل أن أجده أمامى وماذا يريد منى ؟ .. فكرت أن ألقى اليه بحافظة نقودى وساعتى ثم أطلق للريح ساقى ، لكنى اتخذت قرارا غريبا ومفاجئا بأن أكون شجاعا .. ورغم كونى صاحب القرار الا أننى كنت أشك فى نفسى . هناك قوة خفية تغذى فى كيانى ذلك الشعور .. تمالكت نفسى ووقفت . لم يكن هناك مجال للمقارنة بين هذه القوة وبين تلك التى البستنى ثوب الرعب الشديد قبل أن أواجه هذا المخلوق . قلت له بثبات مذهل :

ــ ماذا تريد ؟

ترنح قليلا وأجاب بصوت مخمور وعلى فمه ابتسامة يائسة :

ــ سوف أقتلك

ــ لمـــــاذا ؟

ــ لأنك لا تستحق الحياة

انسكب فوق الظلام ظلام .. انطمست معالم الأحلام الشاحبة .. ماتت آمال طال انتظارها بطول العمر وعرضه وارتفاعه وبعده

الرابع .. اختل توزيع الحلم على الأرض وخيل الى ان احدا لم يعد يعرف معنى لأى شىء .

ــ آى .. آه !!

سقطت اذنى على الأرض . ســـالت دمائى بغزارة . ظهر الشرطى حين اختفى المجرم فخفت أن يعاودنى الخوف . ضغطت بيمناى على الجرح بشدة محاولا ايقاف نزيف الدم المتفجر وانحنيت الى الأرض لأمسك اذنى بيسراى . نظرت الى ما بيدى فى جزع ولهفة ، فاذا بها قطعة من الحديد صماء .. القيت بها الى الأرض فى فزع . لم أفق الا فى المستشفى حين صرت بأذن واحدة .

بدأ الطبيب ومساعده يتراجعان الى الخلف بضع خطوات ، ومازالت راس الضرس بين فكى الكماشة ، وجذره مدفونا فى باطن الفك السفلى للمريض . الفم مفتوح حتى نهايته لكن الصـــــمت بحشوه ويغلفه ويجثم على بابه .

رفع يمناه مشيرا بالســـــبابة المفقودة الى شىء لم يتبينه الطبيب ، ثم عاد ووضعها فوق اذنه المفقودة ثم انزلها من جديد ووضعها بين فخذيه . كان جسده يتلوى من شدة الألم فى كل خلية من خلاياه عدا المنطقة المخدرة من الفك .

اضطر الطبيب ومســـاعده الى الخروج من غرفة العمليات ومازالا بعد يسحبان الضرس من راسه . أصبح طول الجذر بضعة أمتار . فزع رواد الطبيب الجالسون فى غرفة الانتظار . صرخت امرأة . هرب عدد كبير من المرضى وقد اخذ بهم الرعب والذهول . لم يبق بالغرفة سوى عجوز تبدو عليه سمات الفقر الشديد وقد ربط فكه الى راسه بمنديل رخيص ليخفف من شدة المه .

تقدم العجوز من الطبيب فى ثبات محاولا التغلب على آلامه .
قال له بهدوء :

— لا فائدة .. لا تتعب نفسك

نظر اليه الطبيب نظرة استنجاد لاتوجه من عالم الى جاهل .
واصل العجوز القول :

— أن جذره عميق .. عميق .. يستحيل انتزاعه .

* * *

الخـــوف

● **شـــارع النهـــار :**

فى نفس اللحظة دقت ساعة الحائط وجرس المنبه وجرس الباب وجرس التليفون .. افادت كل الأجراس بضرورة النزول الى الشارع . لا مفر من المواجهة اليومية لكل ما لا أحبه .. لو لم تقع المواجهة بالشارع لربما وقعت داخل جدرانى ، ولابأس من الاستفادة ببعض مبادىء العلوم العســـــكرية الحديثة .. فليكن الهجوم خارج أرضى لأضمن سلامتها وسلامتى . حتى لو أصابتنى شظايا الشك والخوف والقلق فسوف أهرع عائدا اليها حتى أداوى جراحى فى أمان .

الأتربة وعادم العربات . سخونة الجو الحارقة . الشارع مكتظ بالناس ولا تلتقى العيون . ملايين النظرات الشاردة تشعرنى بخوف غير مبرر . على الأوجه علامات استفهام وتعجب وملايين الفصلات المنقوطة . كالحمار يجب أن تذهب يوميا فى نفس خط السير . رفاهية الشعور بالملل سوف تكلفك جزاء اداريا مهينا ، فالى العمل ولا مفر .

نفس الملامح اليومية بخطوطها وتعاريجها على نفس الوجوه . كل غادر أرضه بارادته أو رغما عنها . أنا لم أكن أرغب اليوم فى

مغادرة بيتى .. حصنى .. قال لى صوت مطموس المعالم اعرف صاحبه جيدا :

— وكيل الوزارة يريد أن تقابله اليوم

قلت له بآلية الموت المحتوم :

— أنا اليوم فى اجازة

قال بهدوء مجرم متمرس :

— الغ اجازتك واحضر فورا ، فالأمر فى غاية الأهمية .

لن يسود الأمان شارعى ما لم تكفوا عن الكذب . أنا لا أكذب فى أرضى . حين أقترب من جدرانى أخلع درع الشارع وألقى به خلفى فى ازدراء . لو دخلت به أرضى يوما لتحولت الى شارع مخيف كشارع النهار . أعلم أن كثيرين من الرجال لا يرتدون دروعهم فى الشـــــارع فقط ، وانما داخل جدرانهم أيضا وبنفس الكفاءة والبراعة . ولأن وكيل الوزارة كذاب وصاحب الصوت المطموس المعالم كذاب أيضا فاننى نزلت الى الشارع . توجهت بعربتى الى هناك . ميت يتعامل مع أموات فى كيان تنبض كل دقائقه بالموت .

اليوم عيد ميلاد ابنى الأول . حقيقة أنى نزلت الى الشارع . خرجت من دفء حويصلتى . امتثلت لكلمات كاذبة . لكنى سأدافع حتى الموت عن أمنى داخل جدرانى الأربعة . سوف أخلع درعى فى الشارع وألقى بها على الأرض . ســــــأواجه كل الحقائق والأشخاص عريان بلا درع .. أنا الحقيقى هو الذى ســــــيتكلم ويفعل . لم يرد بأحد الكتب السماوية ما يفيد بأن انسان عام ١٩٨١ لن يستطيع الحياة بأنا واحدة وأن عليه أن يعيش جزءا من يومه بدرع لاتقاء الخوف ، والجزء الآخر بلا درع فى وقت الســـــكن والراحة .

شيزوفرينيا القرن العشرين تنتصر .. ضائع كل من لا يلحق بالركب .. مئات المرات أقرر هجر الوظيفة اللعينة والاكتفاء بايراد ممتلكاتى الزراعية الضئيلة . أقرر ولا أنفذ . ربما لاحساسى بأن الحياة الرتيبة تهريج سخيف يخلو من المعنى . ربما لأننى أجد نفسى — أو أفتقدها — فى مسألة ارتداء الدرع وخلعها .. مسألة الصراع اليومى لتأكيد وجود لا معنى لتأكيده ولا جدوى منه .

استقبلنى وكيل الوزارة ببشاشة أوقن أنها مفتعلة . كدت أتقيأ ما بأمعائى على مكتبه الفاخر . تبادلنا الحوار فى الأمر الذى يراه مهما للغاية . لم أجد فارقا كبيرا بين رغبتى فى أن أبصق على وجهه أو أن أقبله بحرارة . فى الحالتين سيستدعى السعاة ويشيع فى المصلحة أننى جننت . اللعنة .

أغلقت فى وجهه الباب وخرجت .

قررت الا أراه الى الأبد !!

● **شـــــارع الليـــــل :**

الانزعاج يحطم معنوياتى الدائمة التأرجح . انى أخاف هذا العالم . طمأنينتى تنحصر بين جدران أربعة تحوى أسرتى . لم أشعر بالخوف لحظة واحدة بين هذه الجدران . خارجها تبرق الأضواء وتمرق العربات وتدق الموسيقا وترقص النساء ويشرب الرجال . خارج الجدران تتطاير الجنيهات والدولارات وتلمع العيون وتعض النواجذ . يسحق القطار طفلا ويقتل رجل زوجته وتقتل امرأة زوجها . فى الظلام تتحرك أشباح وتحوم أرواح ويغلف الصمت النوايا وقد تهتك المصادفة سر الأسرار .

لو أمكننى التوصل الى مبرر يقينى يغنينى عن ارتداء الدرع وخلعها لهان كل شىء . مسلوبة طمأنينتى بالليل ومسلوبة بالنهار .

فكرت بأن أحمل مدفعا رشاشا حين اغادر جدرانى مرتادا شارع النهار او شارع الليل . خفت ان يخيفنى المدفع بدلا من ان يخيف العيون اللامعة النهمة الزائغة . قد لا يعبأ بى احد . قد يخافون منى ويهرولون باحثين عن اماكن للاختفاء . قد يكتشف البوليس أمرى واحتجز خارج جدرانى .. لا مفر اذن من العودة الى القوقع تطمئننى عزلته وتدفئنى سكينته .

● **الجـــــدران الاربعـــــة :**

هتف بى اليوم هاتف شيطانى زلزل أركانى . قال لى اننى غريب على عالمى داخل جدرانى الأربعة مثلما هو غريب عنى . قال لى : أنت لا تعرفه . تعمى عن حقيقته . انه لا يختلف كثيرا عن شارع الليل وشارع النهار . لو اقتربت منه فقد تفكر جديا فى ارتداء الدرع حيث لا مكان ولا زمان للسكن والراحة .

لم أستطع التحرر من الهاتف . فتحت النافذة . نظرت الى السـمـاء .

العاصفـــة

يتثاءب عم عثمان حارس النادى وهو يشمر كم جلبابه الطويل عن رسغه الأيسر .. يحلق بعينين مسهدتين فى عقارب ساعته الداكنة العتيقة . تقترب الساعة من الثانية عشرة مساء . آن أوان الرحيل واغلاق ابواب النادى . يتوجه بخطى متثاقلة الى صالة التليفزيون وقد ضاق صدره بما عقد عليه النية من قول سخيف ينبغى أن يكرره كل مساء فى نفس الساعة :

ــ ياسين أفندى .. ياسين أفندى . الساعة اثنتا عشرة .

يتوالى انصراف موظفى وعمال الشركة فى كل يوم من النادى فيما بعد العاشرة مساء . كل يبغى منزله فيما عدا السيد أفندى حلبه ، فهو الوحيد الذى يبقى أمام التليفزيون حتى يجد عم عثمان نفسه مضطرا الى أن يلفت نظره لضرورة اغلاق النادى فى موعد أقصاه منتصف الليل حسب التعليمات .

فى بداية الأمر كان يعامله بالحسنى ، وكان السيد أفندى يرشوه بسيجارة عله يطرف عينه ليتركه ربع ساعة أو نصف ، لكن الحارس كان يفضل الذهاب الى منزله على تدخين تلك السيجارة التى غالبا ما تحرمه من متعة اللهو مع أبنائه قبل أن يخلدوا الى النوم .

— ارحمني ياسيد افندى . امامى ساعة مواصلات على الأقل حتى أصل الى منزلى .

لولا شدة تعلق سيد أفندى بهذا الجهاز اللعين لأمكنه أن يتناول العشاء مع اولاده كل يوم ، لكن .. ما العمل ؟! ..

— لو سمحت ياسيد افندى . أريد اغلاق النادى .

— مازال امامنا خمس دقائق ياعثمان . كن كريما يا أخى .

فى ذلك اليوم كان عم عثمان فى اشتياق شديد الى السهر مع زوجته ، فالأولاد عند جدتهم والجو خال ، والبال رائق .

كانت اغلى امنية تراود خاطره أن يتغيب السيد أفندى عن النادى فى ذلك اليوم لأى سبب .. ولقد ابتسم فى سعادة لحظة انصراف آخر الرواد والســاعة لم تكن قد تجاوزت التاســعة والنصف .. ياحلو ياعثمان يا رايق . ليلتك أنس !!

سيتعشى مع زوجته البضة مبارا محشوا بالأرز والمقدونس مبهرا بالشطة والفلفل الأسود وجوزة الطيب . وكم يكون جميلا لو اتحفته الاذاعة باغنية من أغانى أم كلثوم القديمة . حتما ستكون ليلة رائعة . ايه . أين أيام الشباب والفتوة ؟! .. هذه ثالث امرأة يتزوجها عثمان . كان ينوى فى بادىء الأمر ان يستبدل بها رابعة حين تتسبب الأسباب ، لكن الماكرة نجحت فى الاحتفاظ بقلبه وجسده الى النهاية .

رتب المقاعد وكنس الأرضية بمقشته المهترئة وهو يتغنى بلحن الشيخ سيد درويش :

« صبح الصباح فتاح يا عليم . والجيب مافيهش ولا مليم .. آه .. لكن المزاج رايق وسليم . والرزق على بابك يا كريم . آه »

كان يعلم أن بينه وبين ذلك الصباح ساعات يتأرجح فيها بين النعيم والمتعة وان سقط ففى بحر من السعادة قلما تتيح له الحياة فرصة للغوص فى أعماقه .

أطفأ أنوار الصالة . حمل مفاتيحه واتجه الى الباب الخارجى .. قال لنفسه بصوت خفيض مهيب :

— ايه .. توكلنا على الله

انهمك فى اســـتخلاص مفتاح الباب الكبير من بين المفاتيح الأخرى .. مالك تتلكأ هكذا ياعثمان ؟! ..

أســـرع قبل أن يزداد انهمار المطر وتعود الى منزلك مبللا كالأطفال ..

— مساء الخير ياعم عثمان

— ...... ؟!!

— المسلمون يردون التحية بأحسن منها

نفذ السهم وانقض سيد أفندى على حلمه العزيز كالقضاء العاجل . بخطى سريعة راح يأخذ سبيله الى صالة التليفزيون .. بالكدر والنكد . تتابعت ضربات قلب عثمان بشدة وافعم صدره بالأسى وقال له فى توسل :

— أنا فى عرض دينك .. دعنى أذهب الآن

— خيف ياعثمان .. مازال من حقى ساعتان وربع الساعة .

— سوف تشتد العاصفة وأنت تعلم كم هو بعيد سكنى .

— كنت أحسبك مخلصا لعملك الذى تتقاضى عنه أجرك .

اليوم الخميس .. وهو اليـوم الوحيـد الذى أنعـم فيه بالانصراف المبكر .

— من أخذ الأجرة ياعثمان حاسبه الله على عمله .. هل صليت العشاء ؟

— سأصليها فى المنزل

— وهل تضمن لحظة من عمرك ياعثمان ؟ .. صل العشاء هنا يارجل .. توكل على الله ودعك من الكسل .

ما العمل مع هذا المأفون الذى ما جـــاء الا لتعكير مزاجى وحرمانى من ساعات الصفاء المرتقبة ؟! .. حسنا .. سأصلى العشاء ياسيد يا حلبه ولكنى لن أتقاعس فى القتال من أجل ليلتى الهنيئة .

ما أن أنتهى عثمان من اداء الفريضة التى كان متشككا فى قبولها — لانشغاله خلال الصلاة فى تدبير مخططه — حتى توجه فى هدوء الى صندوق الكهرباء .

كانت ضحكات السيد أفندى حلبه تختلط بضـــحكات أبطال المسرحية التى كان يشاهدها بنهم طفل صغير .. وكانت الضحكات صراخا وندبا على حظ عثمان العاثر .

فتح باب الصندوق بحرص شديد . بكل الحيطة والحذر نزع العازل الكهربائى ومزق سلكه الرفيع ووضعه مرة ثانية فى مكانه . ساد الظلام أرجاء النادى وهرول اليه سيد أفندى مسرعا دون أن يصطدم بمقعد أو منضدة ، اذ كان يحفظ تضـــاريس النادى بكل أبعادها عن ظهر قلب لطول عهده به وخبرته بها .

— خير يا عم عثمان ؟ ايه الحكاية ؟!

ـــ الظاهر أن النور قد انقطع عن المنطقة

ـــ غريبة . ان كل المبانى من حولنا مضاءة يبدو أن هناك خللا بسيط يمكن اصلاحه

وقال عثمان فى سره : لا تتعب نفسك يا بطل فليس هناك سلك بديل للسلك المقطوع ، كما أنه يتعذر الحصول على كهربائى يرتضى لنفسه أن يقوم فى تلك العاصفة باصلاح لقاء قروش ولو على رقبته .

ـــ الله أعلم ياسيد افندى .

ـــ ساعدنى باشعال عود ثقاب وسأكشف لك على صندوق الكهرباء ..

الوغد مصر على اقلاق راحتى . اليس له بيت وزوجة وأولاد ؟!

ـــ لا عليك يا سيد أفندى . خذ هذه البطارية وقم باصلاحاتك حتى أنتهى من صلاة الشفع والوتر .

انبرى السيد فى عصبية تلقائية غير مفتعلة :

ـــ اى شفع ووتر باعثمان ؟ .. هل هذا وقته ؟ .. ساعدنى أولا على اصلاح الخلل ثم عد الى صلاتك .

ـــ بل أصلى أولا ياسيد أفندى ، فالانسان منا لا يضمن لحظة من عمره .

اخفى السيد افندى نظرة الارتباك التى بدت فى عينيه . تركه يمضى للصلاة وقد ازداد عزما واصرارا على اصلاح الخلل الكهربائى بالصـــندوق .

لم تمض دقائق قليلة حتى تمكن من اكتشاف سبب العطل .. أسرع مهللا الى المصلى مسترشدا بضوء البطارية الصغيرة ممسكا فى يده بالعازل ذى السلك المقطوع .. بعد حديث قصير دب اليأس فى نفسه ، وقد اقشعر جسده لسماع صوت الرعد يقصف بالخارج فى الوقت الذى اقتنع فيه بحجة عثمان المعقولة . كان هطول المطر على سقف المصلى فى موجات متعاقبة الشدة يزيد من يأسه وحزنه حتى ارتسمت موجة من التعاسة الشديدة على وجهه ، لم يخطر بباله محاولة اخفائها .

سادت بينهما فترة من الصمت كان عثمان يتأمل خلالها وجه السيد أفندى على ذلك الضوء الخافت المنبعث من مصباح البطارية الصغير . وساءل عثمان نفسه : ألهذه الدرجة يحزن سيد أفندي لأنه لم يتمكن من البقاء بعيدا عن منزله فى هذا الجو الذى يجبر الناس على البقاء فى بيوتهم مهما عظمت الأسباب الداعية الى مغادرتها ؟!

كان السيد أفندى حلبة منكسا رأسه فى حزن شديد كما لو كان قد فقد ابنا عزيزا فقال له عثمان :

— وحد الله ياسيد أفندى

— لا اله الا الله

— ليس أمامنا الا ان ننتظر هدوء العاصفة ، ثم نتوكل معا على الله .

— توكل أنت أما انا فـــ ....

فغر عثمان فمه دهشة حين لاحظ أن سيد أفندى على وشك البكاء . قال له بلهجة تنم عن تعاطف حميم :

— أستغفر الله يا رجل .. مالك ياسيد أفندى . أهناك ما يكدرك الى هذا الحد ؟ .. قم بنا يارجل .. ملعونة هذه الدنيا بما عليها ومن عليها .

رفع السيد أفندى راسه ناظرا الى عثمان فى امتنان شديد ، جعل عثمان يؤنب نفسه على فعلته . حتى لو أراد عثمان أن يكفر عن « جريمته » فكيف يمكنه اعادة الكهرباء وهو لا يمتلك سلكا رفيعا كالذى قطعه بأسنانه فى لمح البصر .

طغى عليه الاحساس بالندم وشعر بحاجة ماسة الى ضحكة من القلب تخرج من فمه .. لو كان التليفزيون يعمل لشارك سيد أفندى سعادته به لساعة أو بعض ساعة حتى تكف السماء عن غضبها . فاجأه سيد أفندى بوقفة سريعة . ناوله البطارية وقال بحسم :

— أنا خارج ياعثمان

— الى أين ؟ .. ان السيل يغمر المدينة

— سأخرج ولو غمر السيل العالم

امام نظرته المشعة بالعزم قرر عثمان التخلى عن القتال من اجل ليلته الموعودة وهو فى كامل وعيه وقال ان الحياة جب ينوء بالأسرار والالغاز ، وانه ليس من الرجولة فى شىء أن يترك هذا الرجل فى محنته المجهولة تعتصره الوحدة وتدهسه المعاناة .

— وانا خارج معك

كريشتين طارا فى شارع الحرية بمحاذاة الترام يحتميان بشرفات الأبنية العالية من زخ المطر الذى لم يتوقف . لمحا فتى

وفتاة يتعانقان فى بدروم أحد الأبنية المظلمة . تعالت ضحكاتهما العفوية . استمرا يضحكان وهما يقطعان الطريق جريا الى حيث لم يقررا بعد أين يذهبان .

جنحا الى زقاق فرعى ، فصب مزراب مياهه الوسخة على رأس عثمان . تحولت عفوية الضحك الى نوبة حادة متواصلة .

أنتهى بهما المقام الى مقهى سيدى جابر الشيخ . اختلط دخان السجائر المنبعث من أنف سيد أفندى بدخان المعسل الذى ينفثه عثمان فى ركنهما القصى بالمقهى .. وكانت مناجاة مستفيضة عبقت شكاواها برائحة الأسرار الدفينة والأشـــــجان الملغزة .. ونجح بعدها سيد أفندى — عن غير عمد — فى أن يقنع عثمان بأن تشبثه اليومى فى البقاء بالنادى حتى لحظة اغلاقه ، هو المخدر الوحيد القادر على تسكين آلام عجزه التام عن الكشف عما غمض من كنه تلك الأسرار أو فك طلاسمها الأزلية .

وعندما اقتربت الساعة من الثانية عشرة ، هدات العاصفة فدفع عثمان الحساب ، ومضى كل منهما الى سبيله .

الحـــــارة

صافية كالبلور كانت مياه البحر ، ويحتمى البيت الخشبى العتيق المكسو لبلابا بنهاية الحارة المواجهة للشاطىء . النافذة مفتوحة تبعث بنسمات فلول الربيع المنسحب . عبق السكينة يغمر مكونات المنزل بكل ما يحيط به من عالم خارجى وكل ما يحويه من مخلوقات تعيش بالفطرة .

نادى البائع بصوت منغم فأفاض فى وصف فوله وبليلته .

ادلت الأم بسلتها وامسكت بحبلها القصير .

تناول الرجل القرشين وأمسك بالطبق ثم أعاده ممتلئا لحافته .

التفت الأسرة بكاملها حول الطبق فأجهزت عليه .

قالت الأم لابنها الصغير :

ــ شد حيلك .. ربنا معك

كان الولد هائما فى ملكوت لا يدرك سره سواه . وليد حارة جودة براس التين سيقتحم اليوم ناديا اجتماعيا عريقا لم يعرف أحد من افراد أسرته بأكملها كيفية الوصول الى بابه . اليوم تجرى مسابقة بطولة الاسكندرية فى سباحة المسافات القصـيرة ، وثمة

خيالات عجيبة تتراقص فى مخيلته . غرفة مكتب فاخرة بها ثلاثة تليفونات وديكتافون كما شاهد فى السينما . مبنى ادارة الجوازات والهجرة . حافظة نقود الأب وهى مفتوحة وخاوية . شوارع أوروبا الساحرة . يخطب فى حشد كبير بميدان المنشية . الأم تتوضأ استعدادا لصلاة الفجر والدعاء اليومى على المعتدين الثلاثة انجلترا وفرنسا واسرائيل .

رآه يوما رجل مهم فى الحى وهو يسبح فى البحر بمهارة فاستأذن أباه كى يلحقه بالنادى الرياضى الشعبى يتدرب فيه على أصول السباحة بالمجان . الولد فاز على كل أقرانه فى مسابقات التصفية بعد تدريب قليل .. والرجل المهم كان سعيدا بصدق نبوءته .

اليوم حان وقت الامتحان . سيمثل الولد ناديه الرياضى فى المسابقة السنوية الكبرى على مستوى المنطقة الشمالية . قال له الرجل المهم :

— سترفع راس ناديك وحارتك

لفت أمه رغيفا محشوا بالحلبة المعقودة فى ورقة . ربتت على كتفه وقالت له :

— كله قبل السباق فسيعطيك القوة

لم يجرؤ احد من أفراد الأسرة على مجرد التفكير فى مشاهدة الولد اثناء اجتيازه السباق . لم يكن أحد منهم قد رأى حوض سباحة فى حياته . كانوا منغمسين فى حالهم بعيدا عن الأشياء .

اصطحبه الرجل المهم الى ترام البلد . نزلا فى محطة الرمل . ركبا ترام الرمل . الولد مبهور بسنواته الأربع عشرة ، منتشٍ باهتمام الرجل المهم به . لابد أن بشائر رجولته المبكرة — كما

أحس بها — ذات علاقة بهذا الاهتمام ، فعضلاته قد برزت وصوته قد اخشوشن ، وفتيات الحى صرن يرمقنه باعجاب وهو يشــق امواج البحر بثقة وشجاعة . قال الأب للرجل المهم :

— خل بالك مع الولد .. انه أذكى أبنائى

— ولدك سيكون بطلا

— أنى أخشى عليه من الافراط فى التأمل

مصمص الأب شفتيه وأشعل سيجارة ، أما الأم فقد انتاب القلق مشاعرها لأسباب لم تعرفها .

— ٢ —

فى الطريق كان يقارن بين بيته الخشـــــبى العتيق والبيوت الفاخرة التى يمر ترام الرمل بمحاذاتها يمينا ويسارا . الطمأنينة تسكن نظراته المبهورة . لم تسفر المقارنة عن مشاعر حزن أو بغض ، وانما عن أمل جنونى فى مجىء مستقبل يتيح له السكن فى بيت مثل هذه البيوت . قال لنفسه ان الأمل وحده لا يكفى ولابد من فعل أشياء عديدة — لا يدركها — الآن — حتى يتحقق هذا الأمل .

افاق على هزة من يد الرجل المهم تشير اليه بالاســـتعداد للنزول .

— ٣ —

عالم سينيمائى عجيب بألوانه الرائعة . مبانيه الفاخرة .. حدائقه الشاسعة . فتيان يمرحون مع فتيات ببساطة أثارت ذهوله ، فمثل هذا محظور فى الحارة . ملابس استحمام الفتيات تكشف عن أكثر من ثلثى لحمهن وكأن الأمر طبيعى لا غرابة فيه .

حضر مندوبو الأندية المختلفة . ازدحم المكان أمام الحوض المعد للسباق بنفر كثير من الفتية والفتيات والرجال .. خلع ملابسه المتواضعة النظيفة فى غرفة فاخرة يقف عليها حارس فى زى ناصع البياض . قيل له أن يستحم تحت « الدوش » قبل نزول الحوض ففعل .

ما هذا العالم ؟ .. انه يبعث فى نفســـه شيئا من الخوف والشعور بالضآلة . يستحيل أن يفوز على أقرانه فى هذا المكان بالذات . لو أقيم السباق فى البحر لاكتسحهم جميعا دونما أدنى حاجة لاستنفار ثقته بنفسه . ماتراه عيناه الآن يؤكد له انه يعيش وأسرته وأهل حارته فى عالم آخر .. وربما كوكب آخر . حتى لون مياه الحوض تؤكد له هذا المعنى . انه لم ير لونا رائقا شفافا فى حياته بمثل هذا اللون الفائق الزرقة الذى يراه الآن ، لا فى مياه البحر كما يعرفها ، ولا فى مياه النيل كما رآها مرة .

كان مضطرا الى استلهام شىء من الطمأنينة فتذكر دعوات أمه وتشجيع الرجل المهم ونظرات اعجاب فتيات الحى . تسلل بحرص الى غرفة الملابس والتهم رغيف الحلبة المعقودة . عاد الى موقع المسابقة حيث يبدأ السباق . عليه أن ينتظر دوره حتى ينادى اسم ناديه الشعبى الذى يمثله . لو فاز ناديه بالكأس سيفوز هو بميدالية ذهبية ، وسيصرف له النادى مكافأة مالية مجزية ، ثم تقام له حفلة كبرى يمكن لأسرته حضورها .

اتجه بثبات مؤقت الى الحوض المواجه لحوض المسابقة .. جلس على احدى خانات الحوض التى يقفز المتسابقون من أعلاها الى الحوض . عرف أنهم يسمونها « حارة » . الحوض مقسم الى ست حارات لستة متسابقين ، تفصل بين حاراتهم حبال ملونة تصل بين بداية الحوض ونهايته .

فى نفس اللحظة وصلت سابحة الى نهاية الحوض وفوجىء بها تمد يدها اليه بأنفاس لاهثة وهو جالس على ناصية الحارة . سحب يدها بتأثير منوم مغناطيسى قدير . باذلا أقصى جهده كى يحافظ على فمه مغلقا لشدة ارتباكه . صدت الحائط بقدمها تمهيدا للصعود فلم يبعد عينيه عن فخذيها البرونزيتين او عن القطعة السفلى من «المايوه» . مالت منحنية فى اتجاهه كى تصعد الى ناصية الحارة فلم يخجل من تركيز بصره على القطعة العليا من « المايوه » وعلى ما انحسرت عنه من بياض مكتنز منير . ابتسمت له بهدوء وجلست الى جواره ولم تسمع صوت دقات قلبه الصاخبة .

ـــ هل أنت عضو جديد بالنادى ؟

ـــ لا ..

ـــ اذن فأنت مشترك فى السباق

ـــ نعم ..

انصرفت على الفور حين كان يستعد لبدء حوار معها ، فانصرف عن دهشته لسلوكها باستكمال رؤيته لخلفية القطعة السفلى ودراسة اهتزازاتها القاتلة . حينئذ ادرك أنه لا يخاف هذا العالم ـــ كما توهم من قبل ـــ وانه فائز لا جدال ببطولة السباق ، وأن الأمل المجنون الذى لاح له بين البيوت الأنيقة ليس من المستحيل أن يتحقق .

ـــ ٤ ـــ

اصطف المتسابقون الستة على نواصى حاراتهم . امسك مشرف السباق بمسدس صوت صغير . نادى بالاستعداد . دق قلب الولد بعنف لا علاقة له بالابتسامة الواثقة المرتسمة على فمه .

نظر المشرف الى ساعته . رفع يده بالمسدس الى أعلى . قذف أربعة من المتسابقين بأنفسهم الى الحوض قبل انطلاق الاشـارة الصوتية من المسدس . بقى اثنان متماسكان كان الولد احدهما ؛ أعاد المشرف تنبيهاته بعدم القفز قبل سماع صوت الطلقة . عاد الأربعة الى نواصى حاراتهم بأعصاب متوترة . بمجرد سماع الطلقة قفز الجميع . طار الولد كقذيفة صاروخية مدفوعة بجهد اليكترونى خارق . كانت يداه أول ما لامستا الحائط فى نهاية الحوض فكشفت خريطة عالمه عن خزانة بنك عالمى مكدسة بسبائك الذهب . العديد من الأيدى تمتد لتتلقفه خارج الحوض . كاميرات الصحف المحلية وصحف العاصمة تبرق فى وجهه . الرجل المهم يحتضنه بملابسه الأنيقة ويكاد يبكى . يد أخرى تنتزعه برفق من حضن الرجل المهم وتجفف جسده . يد أخرى تقرب له مقعدا يجلس عليه .

ما هذا الذى يجرى فى هذه الدنيا الغريبة عنه ؟ . . الجديدة عليه . . انه لشىء رائع . أعظم من الجنون . الفوز . البطولة . النجاح الساحق فى اقتحام مجاهيل الحياة والكشف عن أسرارها الضاربة فى أعماق القبور . من بين الأيادى المهنئة اكتشف يدا يعرفها . هى تماما . لكن ابتسامتها هذه المرة تشـــكل اعترافا بوجوده ورغبة فى استكمال الحوار معه . ماذا تنوى ان تفعل ؟ . لقد اقتربت منه تماما . . ووسط ضجيج التهنئة قبلته .

— ٥ —

كان عليه أن يأخذ « دوشا » من جديد قبل ارتداء ملابسه . اكتشف هذه المرة أن هناك صنابير للمياه الباردة وأخرى للساخنة . شىء رائع . عالم يستحق الدراسة والبحث والاهتمام . من الغباء أن يتواجد مثل هذا العالم دون أن يدرى عنه شيئا . لابأس من محاولة المعرفة ولو استنزفت العمر كله .

طال تنقله بين الصنابير ومياه « الادشاش » . ما أروع مبنى الجامعة وقبلة الفتاة الحلم ومجانية التعليم . بعد قليل سيسمع اسمه فى الميكروفون ويذهب لتسلم الكأس والميدالية . لحظة الانتصار ، بل لحظة تفجير الشرارة ايذانا ببدء اكتشاف العالم الجديد . لكن المياه حلوة . دافئة ، وسيحوى المظروف المغلق عشرين جنيها . تصفيق حاد . ليت السباق اجرى فى الشتاء حتى يستشعر بقوة الفارق بين استخدام وابور الغاز والحلة والكوز النحاسى وبين استخدام « الدوش » الساخن مباشرة . ليت صاحبة الجسد البرونزى والشعر الكستنائى والقبلة الخاطفة تشاركه لذة الاستحمام — منفردين — فى هذا المكان الجميل . ليتها تشهد لحظة تسلمه الكأس والميدالية . لته يواصل معها الحوار الذى لم يكد يبدأ حتى انتهى . ترى هل يحكى لأبيه وأمه عما رأى وعما حدث ؟ . يحكى أو لا يحكى ؟ . . من الأفضل الا يفعل رأفة بقناعتهما الراسخة بالعالم القديم عالم الحارة والمنزل الخشبى المحاط بالبلاب . ان المسافة بينهما وبين عالمه الجديد ساحقة فى البعد ، فلا معنى عندهم لقياسها أو لمحاولة اجتيازها على الاطلاق . أما هو فحين قفز من ناصية حارته ، ولحظة ان ارتطم جسده القوى بصفحة ماء الحوض ، فانه قد بدأ القياس والاجتياز .

وحين قال لأبيه يوما أنه يريد أن يصبح من كبار رجال الأعمال أو السياسة ، ربت الرجل على صدره بحنان وقال له :

— يا بنى . . نحن على قد حالنا

— هذا لا يمنع يا أبى

كفاك ماء دافئا . عد الى الماء البارد فانه اكثر انعاشا . . ارتشف من هذا الماء كما شئت حتى لا تنسى طعمه ، وحتما ستعود اليه ولو بعد عشرات السنين .

— ان رغبتك فى التقدم تشقينى بقدر ما تسعدنى
— لن احملك عبئا يا أبى .. سوف أعتمد على نفسى
— اننى احترم جسارتك ، واخشى عليك منها
— لا تخف يا أبى ، اننى أعرف ماذا أريد

خلع « المايوه » ووقف عاريا أمام المرآة . نظر الى صـــدره البارز باعتزاز شديد . قرر ان يجفف نفسه ويرتدى ملابسه .. لا مبرر يا أمى لقلقك الدائم على . أما من احد يشجعنى على اقتحام غلاف العالم الآخر ؟ .. اللعنة على قناعتكم الزائفة يا أخـــوتى الأحباء .. أقصى حدود عالمكم بعد يوم عمل شاق هو الجلوس الى المقهى وتدخين المعسل وشرب الشاى . لكن لابأس . مادمتم سعداء بذلك فليس من حقى أن افسد عليكم سعادتكم . لا ينبغى على أحد منكم أن يتحمل وزرا من أوزار أملى المجنون .. وعلى أية حال فقد انطلقت الشرارة وليكن ما يكون .

— ٦ —

أمام الميكروفون نودى على الاسم عدة مرات . استشاط الرجل المهم غضبا . أين الولد ؟ . كان هنا . ابحثوا عنه فى دورة المياه . غرفة الملابس . «أدشاش» الاستحمام . فاز النادى الشعبى بالرقم القياسى الأول الذى ضربه الولد الشيطان . اضطر الرجل الى تسلم كأس ناديه وميدالية الولد .

جاء مهرولا أمام المنصة . امتص الرجل المهم غضبه واغتصب ابتسامة . صافحه وسلمه الميدالية واستدعى مصورا ليلتقط لهما صورة والولد ممسك بالكأس . قال الرجل :
— انتظرنى أمام الباب
— حاضـــر
— سوف نستأجر عربة خاصة الى النادى

أفلتت لحظة الانتصار . نظر الى ناصية الحارة التى قفز من عليها فرأى الحارة التى أتى منها ورأى مطار القاهرة الدولى فى نفس اللحظة .. بحث عن الفتاة . لم يجدها . استعرض العديد من الأجساد شبه العارية . المناضد الملونة وعليها المشـــــروبات المثلجة . الخدم فى زيهم الأصفر والأبيض والأخضـــر . تجمدت مشاعره عند لحظة صفرية لا هى الحزن ولا هى الفرحة . قرب الباب لمح الفتاة مرتدية بنطلونا من « الجينز » تسير مع فتى أنيق يضع فى فمه سيجارة . أمام العربة قال له الرجل المهم بسعادة غامرة .

— اركب يا بطل

... وصعد الى العربة بخطوة واثقة .

أيهــا القــادم المجهــول

فجأة وبلا سابق انذار ودون أى توقع مرتقب جاءه النبأ الغريب .. استمع اليه كما يستمع الى نبأ وفاة قريب بعيد لأحد أصدقائه . بعد يومين ازداد قلق الزوجة وتوترها .. تعجبت لبلادته السافرة، والتى كانت واثقة انه يخفى من تحتها قلقا شديدا وتوترا أشد .. قالت له :

— مضى على انقطاع الدورة أسبوعان

سألها بضيق مكتوم يخشى تفجره :

— ما معنى هذا ؟

— قد أكون حاملا

— والعمـــــل ؟

— لســـــت أدرى

هاهو ضيف مسكين يقتحم عليه حياته . هناك ضيفان قديمان استتب بهما أمر الضيافة بحلوها ومرها ، لا معنى للثورة أو الانفعال فى مواجهة موقف صعب نتج عن لحظة حب غير مسئولة . ينبغى الخضوع الى حكم العقل وحده . من الضـــــرورى اذن أن يكون التفكير علميا مجردا . للمسألة جانبان . الأول يتعلق بالضـــــيف المسكين .. الثانى يتعلق بالأسرة الكائنة .

* * *

أيها القادم المجهول : لو كنت طفلا فالطريق أمامك مسدود ، ستولد فى بقعة عجيبة على أرض الكرة المعلقة . تاريخها قديم قديم . حاضرها يقول بمصطلحات العصر انها بقعة نامية تهذيبا للفظة أخرى هى « متخلفة » . بحكم تكوينى وتركيبى التراثى والنفسى والعقلى سأربيك حتى تصبح موظفا تعسا مثلى ، تمضى حياتك « حانوتيا » تدفن الأمل بعد الآخر حتى تبلغ الستين — أن بلغتها — لتنتظر نهايتك السخيفة المتفقة فى معناها مع بدايتك . لا فائدة من قدم تاريخ بقعتك ، فقد صارت مرتعا للآلام والأحزان لو أتيت الى عالمنا فسوف يصيبك انزعاج أنت فى غنى عنه ، وليس بمقدورى الا الآن فقط أن أحررك من جحيمه الذى لا يطاق . لن تجد — بسهولة — مسكنا تأوى اليه حين تصير شابا مرتبطا بفتاة تحبها وتحبك . لن تجد — بسهولة — ما تحب تناوله من طعام أو شراب . حتى ان وجدت ما تبحث عنه فلن تجد نفسك قادرا على ابتياعه . ستجد السفهاء قادرين . سترى الأوضاع مقلوبة . ستصاب بالشك حتى فى عقلك . لن تجد المنطق فى شىء . سيكون من العسير عليك أن تهتدى الى طريق أو أن تنتمى الى قيمة . الناس أيها القادم يرتدون دروعا فى الطريق . كذابون . منافقون . ثعالب وأفاع ونمور وذئاب . حيث لارخاء فلا مهرب من الصراع والتكالب والاقتتال من اجل الحياة ، فما أجدر ألا تراها على هذه الصورة ! .

* * *

قال لزوجته بعد أن أدرك حقيقة النبأ :

— ينبغى أن نجد حلا فوريا

ــ يستحيل أن أوافق على الاجهاض

ضغط على أصابعه بشدة وقال من تحت ضروسه :

ــ مثل هذه الأمور لا تحسم بهذه الكيفية من جانب واحد

* * *

أيها القادم المجهول : لو كنت طفلة فمسكينة أنت بكل المقاييس . ستنتظرين طويلا برفقة الجوع والحرمان . سيدمر القلق نضارتك ويذهب الفقر بحيويتك . التعيسات لا تتزوجن الا من تعساء ولا تنجبن الا تعساء . ستكررين الدورة الكريهة بلا معنى فالوجود مسألة زائفة فى هذا المكان .

لن تجدى الخلاص فى شىء حتى لو امتلكت مواهب الدنيا بأسرها . لو صرت عالمة من علماء الذرة فلن تستطيعى مواصلة أبحاثك ، وحتى لو استطعت فأنا غير مسئول عن حسرتك عندما تجدين أن راقصة تهز مؤخرتها العارية تستطيع أن تحصل فى ساعة واحدة على ما ستحصلين عليه من أجر فى شهر كامل .. الرجل هنا هو السيد الآمر الناهى بلا مبرر . ستتحولين دون أن تدرى الى مازوكية شرقية تستعذب العذاب وتستنكر السعادة والمتعة . لن تكونى رئيسة لدولتك مهما بلغت من عبقرية وذكاء ومهما أوتيت من حنكة وعلم ودراية . ما أبشع أن تعيشى حياتك شاعرة بالظلم حتى الموت ! . لا تجيئى أيتها المخلوقة الى الحياة . من الأفضل الا تجيئى ..

ــ هكذا انت دائما ، لا تستطيع اتخاذ اى قرار

ــ اننى مازلت مندهشا كيف حدث ذلك بالرغم من كل الاحتياطات .

— ماحدث قد حدث ، كفاكَ تأنيبا .. لقد مللت الحياة معكَ.

انفلتت منه أعصابه . صرخ فى وجهها . غادر المنزل بلا هدف .

* * *

أيها القادم المجهول :

لو كنت طفلا مشـــوها مزدوج التكوين ، فيا أيها الكائن الممسوخ .. أنت صـــورة حقيقية للعصر والمكان والزمان .. معالك مطموســـة . أنت غير حقيقى .. زائف . متلون . أنت الصـــراع والازدواج والحيرة والقلق . لســت أدرى ماذا أفعل بك لو نزلت ضـــيفا على حياتى . اللعنة عليك وعلى أبيك الغبراء . أنت وليد التعاســـة التى كانت تفصـــل بين جسدين ملتحمين بوهم الحب . أنت الفوضى والانقــلاب والثورة . أنت النقيضان مجتمعان معا فى صورة شائهة ممسوخة مقيتة . انى ألعن الحياة التى دمرها الزيف وقتل فيها الصـــدق والنقاء .. لكن ما ذنبك وأنت ابنى وابنتى فى آن واحد ؟ . أنت الآن مجـــرد « زيجوت » صغير يمكن سحقك بعقار كيمائى بسيط . سامحنى لو قتلتك . ها هى أمك تؤنبنى .

— حرام قتل روح بريئة .

— الدولة تشجع تحديد النسل تفاديا لمجاعة مرتقبة

— لماذا لا نسلم أمرنا لله ونرضى بالمكتوب ؟

آه .. التسليم والمكتوب . تريد أن تضللنى وتسلبنى عقلى وتفسد منهجى . انى مصـــر على التزام جانب العقل فى تحليل المسألة ومعالجتها وهذا يستدعى أن أفكر بعمق فى الأســـرة الكائنة .

جمعه بدوى الموظف . مديحة العطار الموظفة . أحمد جمعه . فاطمة جمعه . ننفق دخلنا الشهرى على المأكل والملبس والمسكن . نحن لا نعرف الفائض فى المال أو الوقت ، وبالتالى فنحن لا نعرف الترفيه او المتعة وممارسة الرفاهية . حينما نصير خمسة فسوف تختنق آمالنا . سنزيد من ازدحام بقعتنا وندفع الى قلب الصراع اليومى بمصارع جديد يطالب بحقه فى كل شىء . قال لى مجنون عابر أننا قد نأكل بعضنا البعض بعد عشر سنوات . قرأت خبرا بجريدة يومية يقول ان العالم كله سيعانى بعد عدة سنوات من مجاعة رهيبة . شاهدت فى التليفزيون برنامجا عن الدول الفقيرة فى العالم . رأيت الأطفال كالديدان الجافة .. الأرض الزراعية مشققة من شدة الجفاف . الرجال والنساء والأطفال ممددون على الأرض فى اعياء يموتون جوعا . لا تسعفهم عربات الأمم المتحدة ولن يكفيهم دقيقها وسمنها وقال كاتب اشتراكى معروف ان المجتمع الاشتراكى الصحيح هو الذى يضمن الرزق والسعادة لكل فرد من أفراده ، وبعث الى صديق برسالة من أمريكا يقول فيها انه لولا أن النظام الليبرالى يضمن للفرد مطلق حريته لما عرف الانسان معنى السعادة .

... قرأت وشاهدت وسمعت ولكنى لم أفهم .. أيها المخلوق التعيس القادم فى الطريق .. لست أدرى ماذا أفعل بك ؟!

— كل مولود يأتى برزقه ..

بمجرد سماعى لهذه الكلمات استأجرت عربة خاصة وتوجهت الى طبيب صديق ، ارشدنى الى طبيب مختص بعمليات الاجهاض يتمتع بسمعة شعبية واسعة فى هذا الصدد . عقدت مقارنة

عاجلة بين الحملات الحكومية المكثفة لتوعية الشعب بتحديد النسل وبين تجريم الاجهاض من الوجهة القانونية وبين قول زوجتى عن تحريم قتل روح بريئة وأمامى طوابير من النساء الواقفات والجالسات فى عيادة الطبيب المشهور انتظارا لدور ..

عجيب أمر هذا الكوكب ، فالدول الاسكندنافية تشجع الشعب على التناسل ورغم ذلك فتعدادهم يكاد يكون ثابتا منذ عشرات السنين ..

فى رحلة العودة الى منزلى قررت الركون الى القلب وحده . رأيت الزمن يتعثر بين ازدحام البشر على الأرض يضرب المحبة ويصنع الاطمئنان ويزداد نوره خفوتا حتى الاظلام .. وتساءلت لماذا احرم طفلى من شريك جديد قد يدفع عنهما الضربات والصفعات ويقدم لهما الأمل والمساندة ؟ .. تساءلت أيضا عما أفعل لو مات احمد وفاطمة معا ؟

احسست بصفاء نورانى يشع فى عقلى وروحى . رأيت فى حركة العربات والناس فى الشارع حركة هادئة متسقة تكاد تخلو من الضجيج . دق قلبى فجاة لحظة اتخاذ القرار . ان المسكينة تواصل شرب البراندى لأول مرة فى حياتها . لقد استسلمت لارادتى العقلية المتجبرة وقررت محاولة اجهاض نفسها هربا من اجهاض الطبيب . ليتنى اجد وسيلة للطيران الى المنزل .

* * *

ــ هل شربت كل الزجاجة ؟

ــ شربت ثلثها بالكاد ، والصداع يمزق راسى

— وهل حدث شيء ؟

— اطلاقا

تنفست بارتياح .. ابتسمت لأول مرة وقلت لها :

— أعدى لنا عشاء فاخرا

— ماذا قررت أخيرا ؟

— سأشرب وحدى بقية الزجاجة .

الرســــالة الرابعـــة

— ١ —

علمته الحياة الا يفكر طويلا أمام المصادفات القدرية الغريبة حين تتكرر بشكل يكاد ينفى عنها صـــــفة المصادفة . كل ما يفعله فى مثل تلك الحالات أن يتقبل وقوعها دون أن يقع أســـــيرا لفكرة النحس أو التشاؤم لو كان فى التكرار شر أو لفكرة الاستبشار والتفاؤل لو كان فى التكرار خير . يقول لنفسه هكذا شاء القدر ولا مفر من الانصـــياع لمشـــيئته ما لم يكن بيديه وسيلة لتغيير ما وقع .

ربما كان موقفه هذا راجعا لجذوره الدينية ، اذ كان أبوه يصحبه الى المسجد فى طفولته ، كما كان يدربه على الثبات أمام النكبات والشدائد بارجاعه كل كارثة الى ارادة الله ، وكل فرحة الى فضله .

وربما كان راجعا الى طبيعة دراسته العلمية فى مجال العقاقير الطبية والتحاليل الكيمائية . أو ربما كان مرجع الأمر الى السببين معا . هذا ما عرفته بوضوح عن صديقى الروائى سمير كامل من خلال مواقف حياتية متعددة روى بعضها لى ، والبعض عاصـــرنا وقوعه معا بحكم صداقتنا القديمة ، ولاقترابى الدائم من عالم الأدب

والادباء .. ذلك العالم الذى اجد فيه نفسى واجدد فيه شهيتى لمواصلة الحياة .

كنت أتابع قلق سمير وضيقه لتأجيل نشر روايته الأخيرة مرات عديدة على مدى اربعة أعوام ، رغم تعاقده مع دار « روايات النجوم » على نشر عمله فور تقديمه . تطرق الحديث بيننا مرارا حول الغمامة الكثيفة التى تظلل سماءنا الثقافية ولا تريد أبدا أن تنقشـــــع . اتفقنا على أن الأمية والتليفزيون والانفتاح وارتفاع الأسعار هى الأسباب الرئيسية فى اندثار جمهور القصة والرواية . أكد لى — وأنا مشفق عليه — أن أحد كبار كتاب مصر قال له :

— لو ظهرت منذ أربعين عاما لكان لك شأن كبير

فسأله بحيرة بالغة

— وما الحل يا أستاذ وقد ظهرت الآن ؟

— اذا أردت الاستمرار فلا مفر من التعامل مع الأمر الواقع .

— كيف ؟

— بالكتابة للتليفزيون مباشرة

— أنا أكتب للتليفزيون ؟!!

انه لا يكتب الا الرواية فهى عشقه وعبادته . من العار أن يملأ الصفحات فى وصف باب يفتح وامرأة تدخل وغلام يحمـــــل الأكواب وصورة معلقة على الحائط .. من الكفر بقيمته الأدبية أن يكتب حوارا بالعامية يعجـــــز عن حمل أفكاره الرفيعة .. يموت ولا يكتب الا الرواية .

منذ أعوام قلت له بحسم :

— ما عليك الا ان تصبر وتواصل

— مأساتى أننى اقيم بالاسكندرية بعيدا عن العاصمة .

— اذهب اليهم وطالب بحقوقك

— الأمر يقتضى الاقامة بالقـــــاهرة .. هذا شىء حتمى ومستحيل فى ذات الوقت .

— اذن فعليك بمطاردتهم بالخطابات ، وأنت محترف رسائل منذ صغرك .

كان اسم الرواية « رسالة من ميت » . قبل أن يوقع العقد استدعى لمقابلة العضو المنتدب لدار النشر الكبرى . فتحت له السكرتيرة الباب . كان الرجل جالسا على مقعده الى المكتب وذقنه مغطاة بالصابون وحول رقبته منشفة بيضاء وأمامه عجوز أنيق يضع الفرشاة على مائدة صغيرة ويستعد لالتقاط الموسى .

استاء سمير لهذاالمشهد فى بداية الأمر ، لولا أن اعتذر له العضو المنتدب واستقبله بترحاب وبشاشة فى بساطة طبيعية بددت غرابة الموقف . قال له الأستاذ فهيم وجدى بابتسامة أبوية :

— يا أستاذ سمير .. ألم تجد لروايتك عنوانا آخر غير هذا العنوان المخيف ؟

— انه أكثر العناوين ملاءمة للقصة .

— صدقنى انه عنوان منفر للقارىء ، ونحن كما تعلم مؤسسة تجارية يهمهـا زيادة التوزيع بالدرجـة الأولى .. كمـا أنك — ولا تؤاخذنى — غير مشهور ولكننا قبلنا روايتك لروعتها الفنية .

— اعدك بالبحث عن عنوان بديل .

وفى جلسة مسائية صاخبة اخذنا نفاضل معاً بين عشرات العناوين المختلفة حتى وقفنا الى عنوان آخر هو « رسالة الى ميت » !

دهش سمير حينما تهلل وجه الأستاذ فهيم وجدى بالعنوان الجديد ووعد بنشر الرواية خلال عدة أشهر . غير أنه لم يحدد تاريخا معينا للنشر ضمن بنود العقد .

تمر الأيام متسابقة فى سرعتها حتى يوشك عام من العمر على الانتهاء دون أن تصدر الرواية . يسافر سمير لمقابلة العضو المنتدب عساه يدفع روايته الى فرصة نشر قريبة . يبذل جهدا كبيرا حتى يتذكره الأستاذ فهيم ثم يتذكر روايته .. ينتهى العام ولا تصدر الرواية . يقتحم سمير مكتب الأستاذ فهيم وبنيته قرار خطير .. سوف يعيد الى الدار ما تقاضاه من « عربون » عن نشر الرواية ثم يطالب بردها اليه لينشرها فى دار أخرى . لكنه لا يجد الأستاذ فى مكتبه . تخطره السكرتيرة بامتعاض أن الأستاذ مريض ويعالج بفرنسا ، وأنه سيعود خلال أيام قليلة .

انتظر سمير حتى عاد الأستاذ الى القاهرة وبعث اليه بالرسالة الآتية :

« الأستاذ الفاضل فهيم وجدى . تحية طيبة وحمدا لله على سلامة وصولك وتمنياتى القلبية لكم بالشفاء العاجل ..

أرجو أن تتفضلوا بادراج روايتى فى خطة العام الجديد باذن الله . ولكم خالص تحياتى » .

المخلص : سمير كامل

بعد ثلاثة أيام قرأ نعى الأستاذ فهيم فى الجريدة اليومية الشهيرة التى تصدرها نفس الدار . جاءنى يلعن حظه العثر لوفاة

الرجل ، وبالتالى لضرورة تأجيل نشر روايته حتى يقرر ذلك العضو المنتدب الجديد . عاودت نصيحتى له بالصبر وقلت له باقتناع :

ـــ عليك بمتابعة المسئول الجديد .

ـ ٣ ـ

قبل انقضاء العام الثانى كان قد التقى بالأستاذ حسن شديد ما يقرب من أربع مرات ، تلقى خلالها أربعة وعود غير صادقة بنشر الرواية . ومن العجيب أنه شهد نفس الحلاق فى اللقاء الأخير يمرر فرشاة الصابون على ذقن الأستاذ حسن وهو جالس الى نفس المكتب وعلى نفس المقعد . غير أنه لم يقدم اعتذارا عن ذلك ، كما أن لقاءه كان خاليا من البشاشة لا عن قصد منه ، وانما هى ملامح الشيخوخة المرهقة تفرض نفسها على وجه رجل انهكته الحيـــــاة .

بعد انتهاء العام الثانى انتاب اليأس صديقى وعاوده الغضب فتذكر قراره القديم بسحب الرواية . لكنه لم يسافر الى القاهرة للقاء الأستاذ حسن شديد وانما بعث اليه بالرسالة الآتية :

« السيد الأستاذ/العضو المنتدب

دار « روايات النجوم » .. القاهرة

تحية طيبة وبعد ،

أرجو من سيادتكم التكرم بتحديد شهر معين لنشر روايتى الطويلة التى تعاقدت على اصدارها مع الدار منذ عامين ، والا فسوف أضطر آسفا الى سحب الرواية والغاء التعاقد ما لم تتم افادتى بالرد خلال أسبوعين من تاريخه .

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام .

روائى : سمير كامل

عضو اتحاد الكتاب

فى تلك الفترة كان منقطعاً عن قراءة الجرائد لأسباب عديدة اهمها انشـــــغاله بالعمل وعدم ثقته فى صدق وصحة ما يقرأه يوما بعد يوم .

وبعد ثلاثة أيام سألته زوجته :

ـــ ما أخبار نشر روايتك ؟

ـــ بعثت بخطاب شديد اللهجة الى حسن شديد

ـــ وبالطبع لم يرد عليك

ـــ لقد أمهلته أسبوعين قبل أن أسحب الرواية .

ـــ لكنه من المستحيل أن يرد على خطابك

ـــ من أين لك بهذا التأكيد ؟

ناولتنى الجريدة وعلى فمها ابتسامة ساخرة حزينة وقالت :

ـــ غيرك لم يمهله ثانية واحدة .. اقرأ هذا النعى .

قال لى سمير :

لم أصدق عينى . انه حسن شديد . لا يمكن أن انكر اننى تمنيت موته بعد لقائى الأخير به . لم تعجبنى مراوغته . شعرت أن شابا فى الأربعين لجدير بالجلوس على هذا المقعد الذى يحتكره هؤلاء « العواجيز » منذ عشرات السنين ويفرضون على الدار كتابا عفى الدهر على أفكارهم وباتوا منعزلين بعقولهم وعواطفهم عن روح هذا العصر . تذكرت الحلاق الأنيق . عاودت استرجاع ملامح وجهه حين كان يحلق ذقن المرحوم فهيم وجدى لأقارنها بملامح وجهه وهو يحلق ذقن المرحوم حسن شديد . كانت الملامح متماثلة

فى الحالتين .جدية شديدة ممتزجة بالتجهم ، ونظرة غامضة فى العينين توحى بشىء لا أعرفه . سألنى فجأة :

ـ ما معنى هذا الذى حدث ؟

ـ مجرد سوء حظ بالنسبة لك وانقضاء أجل بالنسبة لهما

ـ أشك فى ذلك . لقد مات الرجلان بعد خطابى مباشرة .

ـ فأين ذهب استنكارك للتشاؤم ورفضك للتطير ؟

ـ المسألة الآن تقتضى اعادة النظر

ـ ٤ ـ

عين مسئول جديد للدار وكان أكثر حسما فى تحديد الأمور . التقى به سمير كامل مرة واحدة . وعده الرجل بنشر الرواية فى ديسمبر من العام الثالث لتسليم الرواية والأول لتسـلمه عمله الجديد . اطمأن سمير لوعد الأستاذ عبد التواب عبد الخبير ولم يكرر زيارته لمكتبه ، كما لم يفكر فى مكاتبته فما الداعى الى الزيارة أو الكتابه قبل نوفمبر من نهاية العام من باب التذكرة فحسب ؟

خلال الأشهر السابقة لأكتوبر حاولت مرارا أن أطرق باب الحديث عن هذه الرواية مع صديقى الروائى ولكنه كان يتهرب منى بحذر أثار فى نفسى الفضول الشديد والخوف من شىء أجهله تماما . لم أبذل من الفكر شيئا يعيننى على الانفلات من هذه المشاعر الغامضة فانقطعت عن الاتصال به عدة أشهر لم يحاول خلالها هو الآخر أن يسأل عن سبب انقطاعى المفاجىء عنه .

فجأة زارنى بوجه مشرق ونفس ساكنة . لم يسأل أحدنا الآخر عن سبب الجفوة الطارئة ، وانما بادرنى قائلا ان الأستاذ

عبد التواب عبد الخبير قد أتصل به تليفونيا من القاهرة وطلب منه التوجه الى مكتب الدار الفرعى بالاسكندرية لاخذ اكثر من صورة فوتوغرافية له كى توضع افضلها على ظهر الغلاف . أخيرا ستصدر الرواية بعد اقل من شهرين دون الحاجة الى سفر أو مراسلة . وبدأنا نقرأ معا بعض الأسماء المحدودة من كبار كسالى النقاد الذين ينبغى ارسال نسخ اليهم من الرواية لدراستها والكتابة عنها فى المجلات الادبية المتخصصة .

بوقار شديد جلس سمير كامل يكتب خطاب شكر الى رئيس مجلس ادارة « روايات النجوم » يشيد فيه بانضباط الاســـتاذ عبد التواب عبد الخبير وحسن تنظيمه لشئون الدار . قلت له بعد تردد لم أفهم سببه :

ـــ لاداعى لهذا الخطاب ياسمير

أجابنى بابتسامة الخبير بنفسية شعبه الذى يكتب له وعنه :

ـــ ان هذا الخطاب يثبت من دعامة الأمر الواقع ، كما يؤكد على استحالة التأجيل مرة ثانية .

لم اقتنع برايه وبدأت أفكر بقلق شديد فى شخص رئيس مجلس الادارة . انه كاتب صحافى شهير ، لكنه يكتب القصـــة والرواية أحيانا وينشرها على صــفحات كاملة بالجريدة اليومية التابعة للدار التى يراسها . ولأننى لا أحب هذا الرجل لأسباب عديدة ، فاننى لم أعبأ باحتمال وصول الرسالة اليه . رغم ذلك فاننى لم أنم أكثر من ساعتين فى الليلة الثالثة لارسال الخطاب من الاسكندرية الى القاهرة .

فى الصباح سارعت الى صفحة الوفيات بالجريدة ، فصعقت لنبأ وفاة صديق عزيز كنت فى زيارته منذ أسابيع قليلة . تذكرت مجلسنا المرح واسترجعت بخيالى تلك الرسالة المغلقة التى كانت

موضوعة على مكتبه . عرضت عليه أثناء انصرافى أن القيها له بأقرب صندوق بريد فى طريقى الى منزلى . قال انها رسالة لم يكتبها وانما وصلته بالبريد منذ يومين . تفحصت المظروف بدهشة بالغة فرأيت الطوابع والأختام بعينى . سكننى الصمت لكنه لم يعاجلنى بتفسير لموقفه بل بادلنى نفس الصمت فوجدت نفسى مضطرا لسؤاله :

— ولماذا لم تفتحه لتقرأ ما به ؟

أجابنى وقد مط شفتيه بقرف شديد :

— لأنها رسالة من ميت

صديقى محب للمرح ، فما معنى مط شفتيه بهذه الصورة ؟ .. على الفور تذكرت رواية سمير كامل ، وعاودتنى مشاعر الخوف الغامضة فسألته باندفاع لفت نظره بوضوح :

— ومن هذا الميت الذى ارسلها اليك ، ولماذا لا تريد ان تفتحها ؟

— انه فنان عظيم حكم على نفسه بالموت ثم ندم على ذلك لعجزه عن العودة الى الحياة مرة ثانية .

وجدت نفسى أجلس من جديد وقد توترت أعصابى بحيث لم أعد قادرا على اخفاء ارتباكى غير المبرر أمامه . قال لى ان هذا الفنان كان فقيرا معدما ،وقد تهاوى عشقه للشعر أمام رغبته القوية فى الانفلات من أسر الفاقة . سافر بعيدا وغاب طويلا وجمع الملايين بأحط السبل وأحقرها . ولما تجاوز الخامسة والأربعين فتش فى روحه عن الشاعر فلم يعثر له على أثر . أفرغ سخطه وندمه وجنونه فى عشرات الرسائل يبعث بها بين الحين والآخر الى صديقى دون ملالة .

بطل أنت يا سمير . تقنع بحياتك المتواضعة وتبذل دمك فى سبيل فنك .

انسانى موت صديقى ما الذى دفعنى بحماس الى صفحة الوفيات .. القيت بالجريدة جانبا وانصرفت الى حياتى اليومية . فى المساء توجهت الى منزل سمير كامل . قبل أن يفتح لى بابه رأيت نفسى أحتضنه واقبل فى وجهه القناعة وأتأمل فى روحه نفحة التحدى ونقاء الفن وروعته .

لم يفتح الباب . قررت أن أعاود زيارته ولو فى ساعة متأخرة من الليل ، فقد تسلطت على رغبة جارفة فى الاستمتاع بتقديرى له . عدت الى منزلى فجذبتنى قوة خفية الى صورة من النسخة الخطية لروايته . كان قد أهداها لى بعد كتابتها مباشرة لمعرفة رايى بها . سرقنى الوقت وانا اعاود قراءتها للمرة الثالثة حتى حدود الفجر . شعرت باجهاد نفسى شديد حال بينى وبين فكرة زيارته .

كان يوم جمعة وكان الأول من نوفمبر . سارعت بشراء نسخة من العدد الجديد لروايات النجوم . حاولت أن أحتوى العبث قبل أن يحتوينى فربما تيقنت من شىء ما . قلبت الكتاب بعصبية شديدة وكأن فى توصلى الى الصفحة قبل الأخيرة معجزة من المعجزات . طال صبرك ياصديقى وتحملت الكثير وتنازلت عن الأكثر وقلت طلباتك من الحياة ورغبت عن الكثير من رغباتك ، كل هذا من أجل فنك . تدرك أن تعيش لتكتب فى دولة نامية لا تعبأ بكتاب أو قراء فى كثير أو قليل . لكن هاهى فرصتك قد حانت وانت جدير بها عن غيرك من كتاب المناسبات وأنصاف الموهوبين والذين اصبحوا كتابا بالأقدمية .

أخيراً أمسكت بالصفحة المطلوبة بيد مرتعشة لألمح بها صورة رئيس مجلس ادارة الدار معلنة عن كتابه الجديد الذى يصدر فى ديسمبر القادم !

— ٥ —

رغم عزوفى الحاد عن زيارة سمير لشدة تأثرى بالخديعة التى تعرض لها ، الا أننى توجهت اليه مدفوعا بواجب الصداقة وما تحتمه من ضرورة مشاطرة الصديق مرارة الاحساس باليأس والهزيمة .

بحذر شديد بدأت فى انتقاء كلماتى أمام وجه متجمد الملامح لا يكشف عن حزن ولا يفصح عن كدر . رأيت عدد نوفمبر من الكتاب أمامه . لابد أنه لعن اليوم الذى اختار فيه الأدب وترك الحياة . زملاؤه أفادوا من الانفتاح وأثروا من السمسرة والتجارة والهجرة الى بلاد الله .. ماذا يمكننى أن أقول لهذا الناحت فى الصخر ؟ .

كيف يمكن التعبير لشهيد عن العرفان باستشهاده ؟ .. وما معنى احترامى غير المجدى لهذا الرجل الضحية ؟!

جلسنا صامتين زمنا طويلا .. استجمعت شجاعتى وسألته بحذر :

— هل بعثت بخطاب رئيس مجلس الادارة ؟

— مزقته بعد انصرافك مباشرة

شعرت براحة شديدة ، خبيثة . من الصعب تأصيلها .

— لمـــــاذا ؟

ــ لست أعرف

ثم استجمعت شجاعتى مرة ثانية وقلت له بثقة مهتزة :

ــ لا مفر امامك من الصبر والمواصلة

لو قذفنى بجهاز الراديو الماثل امامه لالتمست له العذر . لو سب ابى وأمى ودولتى وزمنى بأكمله لما رأيت فى ذلك عجبا . لكنه افزعنى بمقولته العنيدة :

ــ هذا بالفعل ما قررته

ربت بحنان على ظهره وطلبت أن يأمر باعداد القهوة .. عاودنا الصمت ونحن نرتشف القهوة فى آلية بطيئة وكأننا نشيع جنازة العالم . سألته وقد حملت همه على كاهلى :

ــ ماذا تنوى ان تفعل الآن ؟

اجابنى بصوت صاعد من قبر :

ــ سأبعث برسالة عتاب الى الأستاذ عبد التواب عبد الخبير

وضعت فنجانى على المائدة بأسرع من البرق .

ــ اليس من الأفضل أن تذهب للقائه ومواجهته بما فعل ؟

قال بعزم دونه الموت :

ــ انا لن اذهب الى أحد

توسلت اليه .. لست ادرى لماذا :

ــ هل تأذن لى ان اذهب اليه نيابة عنك ؟

اجابنى بلهجة من يعتزم القتل :

— اذهب ، ولكنى سأبعث اليه بالرسالة

رسالة من ميت وفهيم وجدى . حسن شديد ورسالة الى ميت . المجهول الأبدى وعبد التواب عبد الخبير . انا وصديقى الراحل .. رسائل الشاعر الذى مات وصاحبه الذى مل فض رسائله فمات .. بذلت ما أملك من رجاء الا يبعث بهذه الرسالة وأن ينتظر نتيجة زيارتى للرجل .. سألنى بحدة شديدة :

— لماذا تلح بهذه الكيفية على تأجيل الرسالة ؟

لم أجد ما أقوله أمام الشكوك المطلة من عينيه فالتزمت السكوت . عاجلنى بقوله :

— هل تظن انه سيموت هو الآخر برسالتى ؟

اردت أن أصرخ بنعم ، ولكنى قلت :

— هل جننت ؟ .. ما هذا الهراء ؟

— أنا واثق أنك تظن ذلك

واجهته بنفس الاحتداد بعد أن خاننى صبرى :

— بل أنت تظن أن رسالتك سوف تقضى عليه كما قضيت على الآخرين ، وأضيف أيضا أنك تتمنى هذا .

— اذن فأنت الذى جننت لا أنا

تصاعدت حدة النقاش الى درجة لم أتوقعها على الاطلاق ، حتى أننا كدنا نشتبك فى صراع جسدى ، اذ انه دفعنى بقوة فى صدرى وتشنجت عضلات وجهه . أشفقت عليه وتمالكت نفسى حتى تجاوز نفسه وهدأ .

عندما غادرت داره كنت بحاجة شديدة الى النوم ، وكان المؤذن يؤذن لصلاة الجمعة .

صدق حدسى . لا ناقة ولا جمل للأستاذ عبد التواب عبد الخبير فيما حدث . فى البداية حدثنى الأستاذ عن شىء اسمه الخطة ، وعن تعديلات تمت فى الخطة . غير ان عينيه كانتا منكستين . ولما عرف اننا ابناء قرية واحدة بصعيد مصر ، وان هناك صلة بعيدة من النسب تربط ما بين عائلتينا ، فاته فتح لى صدره واخذ يشكو بحرقة من مركزية القرارات فى بلادنا ومن توجيهات الوزير ومن مقاعد تجلس على مقاعد ولا تملك سلطة فعل أو قول سوى « حاضر يا أفندم » .

وهكذا استحال ان احصل منه على وعد بتحديد تاريخ جديد لنشر الرواية . نقلت ما حدث لسمير جملة وتفصيلا . راعيت فى حوارى معه الا أشير من قريب أو بعيد الى مسألة الرسالة التى كان مصرا على ارسالها اليه . فطن الى هدفى فقال كالمعتذر عن اساءة سابقة :

ـــ سوف ابعث اليه بنسخة من روايتى التى صدرت فى العام الماضى .

اندفعت بحماس غير محسوب كان ممكنا أن أندم عليه :

ـــ فكرة صائبة . لعل وجودها امامه يذكره دائما بروايتك الأخيرة .

وقد أرسل سمير النسخة المهداة الى مكتب الأستاذ عبد التواب بالقاهرة واكتست أيامه التالية بغلالة من حزن .

ازداد اشفاقى عليه وتعاطفى معه أمام موقفه الذى بدا لى متسامحا بالجبر مع رئيس مجلس الادارة . اغتصب الرجل حقه

باستخفاف متناه لمجرد كونه رئيسا للدار . وليته يكتب شيئا ذا قيمة يقارن بما يكتب سمير كامل . انه يجتر ذكرياته عبر عهود حكم متتالية حافلة بالتناقضات . ازداد حنقى على هذا الرجل كما لو كنت أنا صاحب الحق المغتصب .

كنت أعلم أن وصول النســخة الى عبد التواب لن يقدم أو يؤخر ، فالسلطة كلها بيد رئيس مجلس الادارة ولا خطة هناك ولا يحزنون . عبث بمعنى العبث . هنا يكمن الفارق بين بلادنا وبلاد الجليد . الكاتب كاتب والناشر ناشر والقارىء فوق الجميع .. شهداء هم كتاب عصرنا الحقيقيون . بضاعة راكدة فى سوق من المغفلين . تذكرت المرحوم الأستاذ فهيم وجدى الذى امتعض بشدة من عنوان الرواية القديم « رسالة من ميت » ثم ابتهج أيضا بشدة لعنوانها المعدل « رسالة الى ميت » . كيف يفكر هؤلاء القوم على مقاعدهم الكبيرة فيؤثرون فى تفكير الآخرين بحكم مســـــئوليتهم الفادحة عن مواقع التأثير ؟! .. حينما تكون الرسالة من ميت فلن تنجح الرواية ، أما حين تكون الى ميت فهى ناجحة ومباعة ! .. لابد أن كتابنا الجادين يكتبون الآن الى موتى .. ومن المستحيل أن يكون فهيم وجدى قد توصل من قبلى الى هذا اليقين رغم حماسه للعنوان الجديد .

— ٧ —

فوجئت بسمير كامل يدعونى لحضور حفل عيد ميلاده الثانى والأربعين . صار أبناؤه ثلاثة ، وشعره يخلو من اللون الأسود ، ومازالوا يسمونه فى الأوســـــاط الأدبية بالأديب الشاب .. أى شباب يا قوم وأى حفل ياصديقى .. وحدوه .. وهل تحولت ذكرى الميلاد من عيد الى وقفة قاتلة مع الرعب ؟ .

لم يكن من تقاليده ان يحتفل بعيد ميلاده ، وان حدث بالحاح من الأسرة فانه لم يكن ليدعو احدا . خيل الى ان هناك أمرا مهما يريد ان يطلعنى عليه فى هذا اليوم بصفة خاصة . قد لا تكون له علاقة بهذه المناسبة وقد تكون ، فصديقى الروائى — رغم تعقله الشديد — اراه احيانا غريب الأطوار . يمكن ان يأتى بأى فعل أو يقول اى قول فى أى وقت ولأى مخلوق .

قبل أن أدق الجرس فوجئت بالباب يفتح عنه ، وهو يودع عجوزا أنيقا يحمل بيده حقيبة جلدية مستطيلة . نظرت بسرعة الى رأس سمير فوجدتها حليقة ، والى ذقنه فرأيتها منعمة حديثا .. همس لى مجيبا عن استفسارى الصامت :

— عم ابراهيم الحلاق

الحلاق ؟! .. لم يكن من عادته أيضا أن يستدعى حلاقا الى المنزل . ترى فى أى حال سيكون اليوم ؟ . واليوم يختلف عن كل الأيام . ففى أعياد ميلاده يكون اما متطرفا فى حزنه واكتئابه ، واما مبتهجا سعيدا لدرجة أقرب الى الجنون .

على الفور تبادرت الى ذهنى صورة الحلاق العجوز الذى التقى به سمير مرتين فى دار روايات النجوم كما وصفه لى . المرة الأولى فى مكتب فهيم وجدى والثانية فى مكتب حسن شـــــديد . والمكتب هو المكتب . أيكون هو نفس الحلاق ؟ . فكيف توصل اليه وكيف أحضره من القاهرة الى الاســـكندرية ولماذا ؟ أزحت هذه الهواجس بثقلها الشديد عن خاطرى ، ولكن هاجسا الح على بشدة فى نفس اللحظة فاستجبت له على الفور .

ادعيت اننى نســـيت « البايب » والطباق بالعربة وجريت مسرعا الى أقرب تليفون بالمنطقة بينما لا تفارقنى صورة الحلاق .

كان لى صـــديق يعمل بالمكتب الفرعى لدار روايات النجوم بالاسكندرية .

— منذ ثلاثة أيام أرسل الروائى سمير كامل مظروفا الى مكتب القاهرة وأريد التأكد من وصوله .

— لمن أرسله ؟

— الى الأستاذ عبد التواب عبد الخبير .

فوجئت بصديقى يصيح بانفعال قوى :

— الأستاذ عبد التواب عبد الخبير ؟!

— نعم ..

— الأستاذ عبد التواب .. تعيش انت

تساءلت باندفاع الموت :

— مات ؟ .. متى ؟

— مساء أمس .

وضعت سماعة التليفون وتهالكت على أقرب مقعد بالمحل . أصبحت مشكلتى الآن هى العودة الى سمير بهذا النبأ المذهل ، أو العودة الى أى مكان آخر بالدنيا وأنا أحمل هذا النبأ فى مسامعى وعقلى ووجدانى . لكنى لم أتردد فى العودة الى عربتى حيث قدتها مسرعا الى منزلى .

بسرعة تفوق لمح البصر امسكت بالصورة المخطوطة للرواية فأحرقتها . خيل الى أن شبح الموت يظلل بعباءته السوداء على كل الكائنات . راحت خلايا مخى تعمل بسرعة محمومة فى محاولة لايجاد

اى روابط منطقية قد تربط ما بين رسائل سمير كامل وموت الرجال الثلاثة وعنوان الرواية ومكتب العضو المنتدب والحلاق القاهرى الذى رأيته منذ أقل من ساعة . اختلطت على الأمور تماما ولم أعد أدرى الى أين اذهب أو ماذا أفعل حتى أسترد ثباتى .

كالمنوم مغناطيســـــيا وجدت نفسى أقود عربتى متجها مرة ثانية الى منزل سمير كامل .

— ٨ —

استقبلنى بهدوء شديد لا يخلو من حرارة الترحيب . تساءل عن سبب تأخرى وقد لفت نظره تجهم وجهى . خلقت له مبررا سخيفا تجاهل بدوره الاستماع اليه . شاركت أسرته الاحتفال بعيد ميلاده وكان يبدو سعيدا جدا .

فى النهاية جلسنا معا بغرفة مكتبه وفى رأسى سؤال دونه الموت .. سؤال يعيد الى وعيى وتوازنى . السؤال الذى من المؤكد أننى ماعدت الا كى أسأله :

ـــ ما هو موقفك من رئيس مجلس الادارة ؟

قال لى بابتسامة هادئة مخيفة :

ـــ هل علمت أولا بما حدث للأستاذ عبد التواب ؟

اقترب بوجهه من وجهى منتظرا سماع اجابتى عن سؤاله الذى فاجأنى به كصفعة على الوجه مباغتة . راح يتفرس بعينين نفاذتين فى معالم وجهى كمن يتشفى فى انهزام عدو كريه . ابتعدت عنه قليلا دون أن أتخلى عن ثقتى بحسن نواياه .

كنت أسمع صوت أنفاسى وأنفاسه بينما اقول له :

— نعم علمت

قال لى بنبرة اتهام ساخرة :

— لقد صاروا الآن ثلاثة !

لم أجد وسيلة لتفجير ما بداخلى من براكين سوى قولى :

— لا اله الا الله

— وهلتريد الآن معرفة ماذا سأفعل برئيس مجلس الادارة ؟

* * *

دنيـــــا

جمعت ما أملك وما لا أملك من عزم واقتحمت الباب الفرعونى الكبير . آه من السنوات تمر بايقاعها المسحور فتحيل الأخضـــــر يابسا والملتهب فاترا والمطلوب مرفوضا وهدف الأهداف شيئا مهلا حتى بعد الحصول عليه . على الباب أحدث صيحات العصـــــر المبهم الغامض المخيف أراها فى ثياب وأحـــــاديث ومـــلامح أوجه الطالبات والطلبة وهم واقفون فرادى وجماعات . ربع قرن مضى بتمامه وكماله .. من قميص على اللحم الى فانلة داخلية من الصوف يستنزف ثمنها نسبة لا بأس بها من الراتب الشهرى للمهندس الكبير .. أنا وباب كلية الهندسة وجها لوجه . من سباحة مسافات طويلة فى نوفمبر على شاطىء المندرة الى التهاب فى العصب الخامس لمجرد صفعة هواء بارد على الخد الأيمن لينبعج فمى يسارا فيصبح وجهى أشبه بوجه رجل عصابات محترف حين أضحك أو أبتسم أو أتحدث .

مئات المرات مررت فيها أمام هذا الباب ولم أفكر فى اقتحام عالمه الخلفى المثير . الأساتذة . المعامل . الأصدقاء . الطلبة . الطالبات . السعاة . المحضرين . الهندسة . الكيمياء . الأبحاث . النسق الفرعونى الخلاب لكل مكونات المبنى العتيد . الرائحة المميزة للطرقات الطويلة . سهر الليالى فى بدروم معمل التحاليل الطبيعية

.. الحريق الذى شب يوما بالمعمل واسطوانة الكلور التى انفجرت وقصص البطولات التى لم تكتب . صورة التخرج التذكارية وليس برأسى شعرة بيضاء واحدة ولا نظارة طبية على عينى . حاولت أن ادخل رافعا هامتى شادا صدرى لكن أثقالا كثيرة حـــــالت دون ذلك فلم أســـــتطع أن أتحرر من انحناءتى التقليدية وتجـــــاوزت الباب الى المدخل الرئيسى .

ضجيج شديد . أتآلف معه وقد عبرت حواجز الزمان والتجربة ونظرات العارف . مجلات الحائط وموضوعاتها قد اختلفت تماما فكأنها كتبت لطلبة ولطالبات كوكب آخر . الآيات القرآنية الكريمة معلقة على كل الطـــرقات . الهيبيز والجمـــاعات الدينية يتميزون بذقون طويلة تحتاج التفرقة بينهم الى فترة من التأمل أو قليل من الحوار . أجيال جديدة من الأساتذة لم أشعر تجاههم بذات الوقار القديم حين رأيتهم يغدون ويروحون . هيبة المكان قد اختلفت وكذا رائحته بتداعياتها الجوانية الغائصة فى أغوار ما مضى من ماض ، ومغناطيس جهنمى القوة لا أراه . يجذبنى الى احدى الطرقات . لا أعلم حتى اللحظة اى ريح حطت بى على هذا المــــكان المكتظ بالذكريات . لكنى أعلم .

أعلم أننى ما اقتحمت الباب الفرعونى الكبير لألتقى بالعميد أو برئيس قسم الهندسة الكيميائية ، وانما لكى أرى « رمضان » . ولكى أرى رمضان وقد اقتربت من الخامسة والأربعين ، وأنا لا اعرف تماما لماذا أريد أن آراه ، فتلك مسألة تحتاج الى تفكير وتدبير وروية . أن أعدل مســــارى وأتناسى ما غادرت منزلى لأجله ، وأنحرف باتجاه كليتى القديمة وصدرى يمور بانفعالات غامضة وقلبى يدق بعنف رقيق كى أرى هذا الرجل فلابد على الأقل من استعداد وتفكير ومناورة ، فالحرص والحذر منحتان لعينتان انعم بهما على

زمن قدره خمسة وعشرون عاما ، واستلب منى فى مقابلهما نعمتى البساطة والتخلى عن الاحتراس .

ساع فقير بقسم الهندسة الكيميائية . نحيف القوام . يخفى معطفه الأبيض المعمر ما تحته من أسمال . صوته ذو جرس متميز . جاد فى عمله قلق فى نظراته شـــره فى تدخين ســـجائر الطلبة الموسرين . سريع فى تلقى منحهم ليعد لهم الأجهزة ويغســـلها ويرتبها ويشرف على وضعها بأدراجهم .

ــ سبعة أطفال وأمهم يا « سمير »

أخفى تعجبى وأكتم دهشتى الغاضبة لهذه الجراة ، فما هكذا ترفع الكلفة بين ساع وطالب على وشك أن يصير مهندسا . لكن نسمة من التسامح كانت تبرد لهيب حيرتى على مدى خمس سنوات قضيتهم بالكلية . قلت لابد انه يحبنى كثيرا حتى يخصنى دون غيرى من الزملاء بهذا النداء غير المســـبوق بلقب « أســـتاذ » أو « باشمهندس » . قلت فى مرات أخرى لابد أنه يشعر بانتمائى الى طبقته أو انتمائه الى طبقتى بحكم عجزى الدائم عن منحه «البقشيش» والسجائر . أحس بغريزته أننى فقير مثله فلم يسقطنى من مجال الاحترام ولم يهمل فى تلبية طلباتى بالمعمل ، وانما اســـتبعدنى بتلقائية طبيعيـــة من دائرة القادرين على المنح وضـــمنى بنفس التلقائية الى دائرته الاجتماعية ، حتى انه قال لى يوما بابتسامته الصادقة .

ــ صباح الفل يا « سوسو »

قبل ان أفكر فى الغضب لاحظت ــ فى غمرة ارتباكى ــ أن الزملاء يغبطوننى على هذه المعاملة الخاصة من رمضان . الكسولون منهم بصفة خاصة يعلمون ان بيده أسرار العينات المجهولة التى

نحللها ، فهو الذى يعرف أسماءها وأرقامها لاشتراكه مع المحضر فى اعدادها . ربما اعتقد بعضهم أننى أتوصل دائما الى معرفة عيناتى عن طريقه وهذا ما لم يحدث كما لم أفكر فى حدوثه يوما ، ولو انى أستطيع الآن أن أقسم أنه ما كان سيرفض لى طلبا فى هذا الشأن لو طلبت وبلا مقابل ودون تضرر أو تأفف ، وانما بحكم الولاء للدائرة الاجتماعية التى شـــــاء بفطرته أن توحد بينى وبينه فتعطيه الحق أن يناديني باسمى مجردا فى بعض الأحيان أو محورا فى أحيان أخرى .

القوة المغناطيســـية الجهنمية تشـــــدنى والحرص والحذر لا يفارقاننى وليكن فى دخولى المتعمد الى دورة المياه المجاورة لمقره مبررا للقائه بحيث يبدو اللقاء عابرا غير مدبر . ولكن لماذا هذا التعقيد السخيف للأمور ؟ .

— صباح الخير يا عم رمضان

تمنيت أن أحتضنه واقبله فأنا الآن منتم اليه بكامل وعيى وبعد مرور كل هذه السنوات . الآن أشعر أنه كان أصدق منى حدسا حين احتوانى بفطرته منذ خمسة وعشرين عاما دون استشارتى ، وجعلنى واحدا من أفراد عشيرة الكدح والمعاناة . توقعت أن يقبل على بحرارة ما بعدها حرارة لتسعد أذناى بسماع قوله :

— أهلا يا سمير

لكنه لم يقلها . قال كالتائه وقد ازدادت صلعته وضوحا :

— أهلا يا باشمهندس . أوحشتنا يا رجل

قال لى الأطباء انه العصب الخامس ولابد من العلاج بالصدمات الكهربائية وتعـــــاطى الكورتيزون واحمد ربك لأنك لا تعانى من

من الضغط أو السكر ، وكنت قد حمدت ربى كثيراً قبل أن يأمرونى بذلك . قال لى اصدقاء لا تكن حساسا فى افراط فتهتز مشاعرك وتقلق وتتوتر لأتفه الاسباب فقلت لهم « حاضر » وانا واثق أننى لن أفعل لأنه ليس بيدى أن افعل ، فضـــلا عن أننى لا أصـــدق دعواهم . رمضان هذا بطل . صامد . لا حساسية شديدة ولا عصب خامس أو سابع فمشكلته ثابتة محددة لا تتعدى تدبير حاجة اليوم الآتى . أنا هش الى جواره بكل رأسى التى لم يعد بهـــا شعرة سوداء والتى امتلأت بجماجم الشهداء من الاصدقاء وغير الاصدقاء ومقاطع موسيقية متناهية فى القدم وحوارات لاتنتهى بين كائنات مجهولة وأطفال بؤساء مشردين وحروب لا تنتهى ورجال مقهورين وآخرين مستبدين ومثل عليا تعجز عن الظهور فى مناخ لا يسمح لها بذلك .. وهكذا تنتهى القصة الى عصب يرفض العمل فيشل جزءا من الوجه واعجز عن الاحتفاظ بالطعام والشراب داخل فمى المنبعج .

ـــ ما بك ؟ .. لابأس عليك

ـــ الحمد لله .. أنا فى تحسن مستمر بمداومة العلاج

أعطيته جـــريدتى لينتظرنى حتى أفرغ من تدبير خطتى .. دخلت الى دورة المياه . أبول حزنا غامضا فقد نسى الرجل اسمى . اضع يدى فى جيبى واخرج ورقة مالية قدر لها ان تخرج من جيبى لتدخل فى جيبه دون أن يفكر أحدنا فى ذلك . « سبعة أطفال وأمهم يابو سمرة » . لابد ان بعضهم قد صاروا رجالا . لكن معالم وجهه مازالت تحتفظ بسمتها الأساسية الناطقة بالتسليم . ياه . كم يكون رائعا أن أتوصل يوما الى ما توصل اليه هذا الرجل فاحتفظ بمعالم وجهه ثابتة لم تتغير . خطوط وجهى صارت متداخلة متعرجة ينم بعضها عن قسوة وبعضها عن هزيمة وبعضها عن علامات اقتتال

رهيب مع كائن أسطورى عمره خمسة وعشرون عاما . لكن قلبى كان يخفق بذات العنف الرقيق الذى لا يعرفه الا العاشقون . ابول زمنا مصفرا خاب فيه املى الى حد كبير وان لم افقد به ثقتى تماما ، فبآمالى الوان خضراء مازالت وأخرى زرقاء وغيرها بيضاء وبنفسجية وحمراء . نسى الرجل اسمى فرأيت ابتسامتى على المرآة المواجهة للمرحاض . كيف لى أن أستعين بكافة أدوات البيان حتى أصف هذه الابتسامة . من الأفضل اذن ألا أجهد نفسى فى وصفها وقد ضاقت بى العبارة . انها ابتسامة والسلام .

— ماذا حدث ياعم رمضان ؟ .. أنسيتنى ؟

— أنا ؟ .. أبدا والله .. وهل يعقل هذا ؟ .. لقد كانت عشرة عمر

امتلأت القاعة بجمهور الحاضـــرين من الطلبة والمعيـــدين والأصدقاء ولم أدع أحدا من اقاربى للحضور . بعد انتهاء المناقشة واعلان حصولى على درجة الماجستير فتح باب القاعة . أول من رأيت كان عم رمضان .. عانقنى .. ولأول مرة — ولآخرها أيضا — يقـــــول :

— مبروك يا دكتور

واذ به يفتح زجاجات المياه الغـــازية ليوزعهـــا على كل الحاضرين — دون استئذانى — وعلى وجهه علامات بهجة من القلب لا تنسى .. أبعد هذا كله ينسى اسمى ؟ .. ولكن من تعتقد فى نفسك أن تكون ؟ . اسمك . اسمك . اسمك .

— ومع هذا فقد نسيت اسمى يا رمضان

رغم حرجه فقد ابتسم فى استسلامه المعهود وناولنى جريدتى وهو يشيح محيرا بيده الأخرى

للحظة خاطفة تأملت ـ بكل قدرتى على النفاذ ـ عينيه فقرأت بهما اعتذارا وســـــمعت منهما صوت الم يفوق المى ولمســـت فى سكينتهما المستقرة تسليما بأن ما حدث كان لابد أن يحدث ، وانه كان ينبغى على الا اتوقع غير ذلك ، وهو أنه مازال أصدق منى حدسا وأكثر منى جراة وبطولة .

خلال مصافحة الوداع انتقلت الورقة المالية من يدى الى يده الى جيبه ، وحلقت فى سماء لحظتنا لمحة عرفان وامتنان محت كل آثار الجرح ، حين رمقنى بنظرة متعددة الأبعاد تحتوى كل الدوائر الممكنة ، لا على دائرتينا فحسب .

غادرت مبنى الكلية وقد استحال عنف خفقان قلبى الى دقات هامسة مطمئنة فتجاوزت ما اعترانى من حزن غامض وتحررت من سيادة اللون الأصفر فى أملى وفى بولى . وكنت مقتنعا بتفسير عم رمضان لسبب نسيانه اسمى ..

* * *

ضحيـــة وجهـــه

التقيت به أمام محطة الترام . استسمحنى أن اشعل له سيجارته . شاب مبعثر الهندام ممن كتب عليهم عناء الكدح حتى الموت . زلزلتنى ابتسامته التى عبر بها عن شكره . كنت غارقا فى هموم ذاتية لا حصر لها يدور معظمها حول محور العجز المادى . قوة خفية ممعنة فى الغموض جذبتنى اليه . تضاءل كبريائى واندثر تحفظى تجاه انسان لا أعرفه ولم يخطر ببالى لحظة واحدة أن أوليه أدنى اهتمام . وجدت نفسى أبادله حديثا دنيويا عابرا من وحى لحظة الانتظار وازدحام الأرض ببنى البشر . تفاصـــــيل الحديث لا أتذكرها الآن ، لكن الترام ظهر أمامنا فجأة فانقطع ما بينى وبينه من وصل غامض وقلت له دون أن أدرى كمن سلب وعيه ..

ـــ سوف نكمل حديثنا بالترام .

* * *

أخذت تذكرتى وعدت الى شرودى فبقيت واقفا كالمخدر بجوار مقعد المحصل . يكاد الرعب يقتلنى خوفا من المستقبل الذى يبتلع حاضرى . استرجع ما مضى من عمرى بمزيج من الندم والحسرة والاعتقاد فى سوء الحظ . لمحت وجهى مبعثرا على زجاج الترام . تأملته بفضول شديد . استرجعت قول أحد أصدقائى :

ـــ أنت ضحية وجهك

الخطوط المتعرجة المتداخلة على جبينى وتحت عينى أكثر وأعمق بكثير من منتصف العقد الرابع من العمر . شعيرات الرأس البيضاء المتكاثرة يمينا ويسارا تضفى على الوجه معالم خادعة . حتى فى طفولتى كان أصدقائى يتعاملون معى بحرص وحذر شديدين . اليوم تخاف النساء منى وتتحدثن بدهشة عن بريق عينى المتوهج . أما الرجال فيتهامسون فى موقع العمل عن حدة ذكائى . بعضهم عن غيرة وبعضهم عن اعجاب مشوب بالتوجس ، وقليل منهم عن حب وتقـــــدير .

طظ .. ماذا جنيت من هذا كله ؟ . تجاوزت منتصف عمرك ولم تحقق شيئا لنفسك أو لأبنائك . جريت وراء السراب . زملاؤك القدامى يملكون الآن بنايات ضخمة وعربات فاخرة وأرصــــــدة فى البنوك ومشاتى ومصايف . قال عنك أستاذ جامعى شهير :

ــ لو لم تدركه حرفة الادب لكان مليونيرا بلا جدال

لا أحب أن أكون مليونيرا ولا أستطيع . أتمنى فقط أن أكون مطمئنا لأكتب الشعر . أن تعرف السكينة طريقها الى قلبى حتى أكتب الشعر . أن أنام ولا أشعر بنومى فأحلم بالشعر . أن أتحرر من جحيم الخوف من الأيام القادمة حتى أصبح قادرا على أن ابتسم بصـــــفاء .

* * *

نفس الابتسامة . يقف فى ركن بعيد بالترام . أريدها أتمناها أشتهيها لأتحرر من الخوف . لمحته يرنو الى فى حياء ضاعف من جلال ابتسامته . قالت لى عيناه بصوت يثقب الأذنين :

ــ أنا أعلم منذ البداية أنك تخلصت منى بلباقة لأنك لم تكن تنوى أن تكمل معى الحديث

رائحة عرق الركاب المكدودين تزكم انفكَ . الترام بطيء . لن تلحقَ بالمجتمعين فى المحفل الادبى . سينفض جمع الشعراء قبلَ وصول الترام . بحاجة انت الى الايمان اكثر من حاجتـــــكَ الى الاكسبجين . قالت لى احداهن :

— ستموت ناقص عمر من شدة القلقَ

لماذا أولاكَ ظهره ؟ . لعله واثق من توجهكَ اليه لاستكمالَ الحديث . لعله خجلَ من ترفعكَ تجاهه وتجاهلكَ اياه ، فرباط عنقكَ وحده يساوى ثمن ما يرتديه من أسمالَ . لماذا تذهب اليه ؟ . لعلكَ تهرب من رائحة العرقَ وثرثرات النساء السميكات وصراخ أطفالهن الى حيث يقفَ فى مكان أقلَ ازدحاما . لعلكَ غير قادر على الاستمرار فى شرودكَ . . لعلكَ مشفقَ عليه من الشعور بالدونية . لعلكَ فى مسيس الحاجة للتوجه اليه ، بلَ انكَ بالضرورة مضطر الى الذهاب اليه حيث يقفَ .

* * *

— كنت واثقا انكَ ستجيء

— ومن أين جاءتكَ هذه الثقة ؟

— لاننى عرفت حقيقتكَ

اصبت بفزع شديد أمام ابتسامته الثالثة الواثقة التى عرتنى تمـــــاما :

— كيف هذا ؟

— لا تستكثر على موهبة من عند الله ليس لى فيها فضلَ

اقترب الترام من محطة نزولى . نظرت فى ساعتى بقلقَ . . سألته بحسم :

— أين تنزل ؟

— فى آخر الخط .. وأنت ؟

لست ادرى من يكون غيرى ان لم اكن انا الذى اجابه بلا تردد :

— فى آخر الخط أيضا

ابتسم للمرة الرابعة ، لكنها كانت ابتسامة العارف يقينا بأننى اكذب ، او بأننى مساق الى الكذب رغم أنفى ، لأننى لم أكن قادرا على الانفلات من أسره الغامض .

* * *

فى ومضة كالبرق امتزج الماضى بالحاضر بالمستقبل وتوحد الزمن بالكون فأدركت أننى مخلوق وتراءى لخيالى قطيع من الجمال يعبر الصحراء وطيور ملونة ترفرف بأجنحتها فوق نهر صغير وغابات لا نهاية لها يكسوها الجليد وتكويها حرارة الشمس وتهطل فوقها الأمطار بغزارة كالسيل وبراكين تقذف بحممها فى كل مكان وأطفال يمرحون ونساء يرقصن ورجال يصلون وعفاريت يظهرون ويختفون فلما حانت لحظة معينة لم اعد أرى شيئا وانما أتت الى مسامعى موسيقى هادئة تغمر الكون فشعرت لأول مرة فى حياتى بالطمأنينة .

* * *

تعانقت أمواج البحر فى هدوء دام ثلاث ساعات . غادرنا المقعد الأخضر المواجه للشاطىء وقلنا نتمشى فى المدينة ونواصل الحديث . قلت له ما لم أقله لأى مخلوق عن نفسى . نفضت اليه بكل ما احتوت جعبتى من أدق أسرار حياتى . كان ينصت الى بابتسامته الساحرة فيدفعنى بصمته الى استخراج اعماقى بعنف واصرار وسرعة كما لو كنت فى سباق مع الزمن . لم اشعر تجاهه بضعف او هزيمة رغم علمى بأنه على درجة متوسطة من التعليم .

ام أضع فى حسبانى أدنى اعتبار لشهاداتى الجامعية المتعددة .. أسلمت لصمته روحى ، فلم تكن مســــالة علم أو ثقافة بل كانت مسالة حياة أو موت .

ادرك أننى تعبت من طول المشى . دعانى لتناول العشاء فى بيته . وافقت آليا بمزيج من الفضول والسعادة ، والرغبة فى التواضع .

* * *

انقضى زمن كالدهر قبل أن أفيق من ذهولى . البيت أشبه بقصر . نافورة ملونة تتوسط غرفة المكتبة الدينية . عبق البخور المعطر يغمر المكان . الصفاء والشــفافية يحملان البيت بأكمله ويطيران به الى أعلى السماوات . ابتسامته لم تتغير . لم يتأثر بذهولى لاكتشاف واقعه الخفى الذى لم يشر اليه خلال حديثنا الطويل . من أنت أيها المخلوق ؟ . لم تواتنى الجراة لأساله عن ســـــر هذا التناقض الصـــارخ بين مظهره ومخبره . لكنه قرأ السؤال فى عينى فأجابنى بهدوء .

ــ كل هذه أشياء زائلة . لا تشغل نفسك بها .

ابتلعت ريقى بخجل شديد . أحضر مشروبا مثلجا وطبقا به قطعة من الجبن وكسرتان من الخبز وقال لى بحرقة :

ــ حــــرام عليكَ .. حــــرام عليكَ

توقفت عن الأكل وقد اعتدت توالى الصـــدمات منذ لحظة رؤيته . نظرت اليه مستسلما فواصل حديثه :

ــ أنت انسان طيب . كل خط فى وجهكَ القاسى يقول ذلكَ . لماذا أنت بعيد عنه .. لماذا ؟

انتابنى منه خوف مفاجىء لأول مرة . فكرت فى الفرار من منزله . نظرت الى ساعتى . ربت على كتفى وأطلق انذاره بحنان شـــــديد :

ـــ لولا انه يحبك لما أمهلك كل هذا العمر لتقترب منه

ازداد خوفى منه . تبادر الى ذهنى انه مختل . وقفت . وقفَ معى . قال بحزم :

ـــ انى احذركَ . لم يعد أمامكَ وقت طويلْ

* * *

ظللت ساهرا على فراشى حتى الصباح . لم تفارق صورته خيالى لعدة أشهر . داهمتنى الحياة بأحداثها وضاعفت من تشابك الخطوط على جبينى وتحت عينى وازدادت كثافة الشـــعر الأبيض دون أن أتجاوز العقد الرابع .

كلما تأزمت بى الأمور تذكرت انذاره . أسارع الى مكتبى لألتقط رقم تليفونه . اضــــع أصـــــابعى على القرص أدير الأرقام الخمسة الأولى وأتوقف عند الرقم السادس . لم يتغير شىء فى حياتى . اختلط الخوف بالقلق ولازمنى الشعور بالاهتزاز .

بالأمس فقط تسلحت ببقايا تراثى من العزيمة والثقة وأدرت الرقم السادس . ما أن سمعت صوته يستفسر عن محدثه حتى أغلقت السماعة ، تصبب العرق على جبينى بغزارة . خيل الى أن نهايتى قد اقتربت وأن انذاره كان حقيقة لا تقبل الشك . انغمست فى همومى من جديد . ماعدت بقادر على مقارنة حالى بحال زملائى القدامى .. ما عدت بقادر على الثبات .

قررت ان اذهب اليه بنفسى .

* * *

الراوى والآخرون والحقيقــة

الــــراوى :

أنا موظفٌ صغير . يسألنى ابنى كثيرا :

ـــ الى متى نظلُ فقراء ؟

أنا رجلٌ يهتم بنصفه الاعلى .. حجة قد تكون واهية ، لكنها حقيقة . دائما ما تقــــول لى زوجتى وأنا غارق بين الكتب وأسطوانات الموسيقا :

ـــ لم يكن لمثلكَ زواج

أنا انســــــان دائم القلق والتوتر . صفة قد تكون كريهة ، لكنها عندى ايجابية وبناءة . قال لى صديق كبير :

ـــ لقد خلقت للفن والابداع

ارادتى فولاذية . أســــتطيع اقتحام النيران والمحيطـــــات والأرض والأحزان والأفراح . قدرتى غير محدودة على فعل كل تلك الأشياء ولكن دون أن أتحرك من مكانى . قال لى أبى يوما :

ـــ لو تستغل قدراتك فى المفيد فســوف تصبح ذا شأن فى هذا البلد .

ورغم كلّ ما ذكرته عن نفسى وما قاله الآخرون عنى ، الا اننى اقف حتى الآن عاجزا أمام سد منيع لم أستطع اقتحامه أو ايجاد ثغرة فى بنيانه العملاق أو مفتاح لبابه المغلق دونى فى عناد أبدى .. ذلك هو باب اليسر المادى . عندما تجاوزت الأربعـــين وبدأ حماسى للأشياء يفتر ، لم أجد أمامى حلا يحقق لى توازنى الداخلى سوى الاستسلام لقدرى . لم يكن من الصعب أن التمس لنفسى العديد من الاسباب المنطقية وغير المنطقية أبرر بها عجزى . بعضها أعلنها على الناس وبعضها أخفيها بنفسى من نفسى . وفى النهاية كان الفن ملاذى الوحيد .. انهل منه أحيانا وأسقيه أحيانا أخرى .

ترتب على ذلك — بحكم مسئوليتى الاضطرارية — أن أعلم ابنى الا يعتاد المقارنة ، فالكثير من أصدقائه ميسورو الحال .. حاولت تدريبه على أن يرضى دائمــا برزقه ويقنع به ، بشرط أن يعمل — مثلى — جاهدا فى حب واصرار احتراما لهذا الرزق قليلا كان أم كثيرا . أغلب ظنى أن الولد لم يقتنع بوجهة نظرى ، لأنه — رغم علمه بحالى — مازال يطلب منى شراء أجهزة حديثه للعب لا يقلّ ثمن أبخسها سعرا عن خمسمائة جنيه . جربت الطواف فى بلاد الله المختلفة والعمل ليلا ونهارا على مدى سنواتى الأربعين ولم أستطع فتح الباب الموصد . تذكرت المثل التراثى القائل بأن من يدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له . الآن أدرك أن هذا كلام فارغ من المضمون وأن كلا ميسر لما خلق له ، وأننى لم أخلق لفتح هذا الباب الذى يفتح أحيانا — وعلى مصراعيه — لمن لا يطرقه .

اعتقدت أحيانا أن هناك ظلما يختفى وراء هذه الظاهرة .. تبين لى فى أحيان أخرى أن هناك عدلا يختفى وراءها . ولما صعدت يوما الى القمر أيقنت أن هذا الكون كبير للغاية وأن السيطرة على

ابوابه المفتوحة والمغلقة تتطلب حدوث أمور لااستطيع أنا أو غيرى استيعابها ، فما أراه ظلما قد يكون عدلا وما أراه جمالا قد يكون قبحا . لهذا كله قررت أن أعيش سعيدا حتى لو لم يفتح لى هذا الباب .

فلما نزلت يوما تحت الارض بهرنى عالم الصمت والسكون . شعرت بسلام داخلى لا مثيل لروعته ، حتى اننى لم افكر لحظة فى الباب أو المفتاح أو السعادة . لم أفكر فى شىء على الاطلاق . وعندما عدت الى الأرض تبين لى أن مائة وأربعين عاما من عمرى قد ولت لا اربعين فقط .

اعتصرت ذاكرتى للوقوف على تفاصيل القضية المهمة التى كانت تشغلنى وتؤرقنى ولم يحسمها لى زمانى . بذلت ما بوسعى كى اتذكرها دون جدوى . فكرت أن اتلذذ بالندم على ما فات أو أن آمل خيرا فيما هو آت ، فلم استطع . تساوت عندى كل الاشياء .

عند هذه المرحلة وضعت خياشيمى فى راسى وعشت عمرا آخر فى البحر . لم ارفع راسى ولو ثانية واحدة فوق سطحه .. لم تراودنى الرغبة فى رؤية أهلى وابنائى . وجدت الحياة تحت الماء اكثر روعة . صحيح أن قانون الأرض سائد هنا ، فالأضخم يبتلع الأصغر ، لكن مجال التأمل متاح لكل من له عقل وســـمع وبصر . وأخيرا حملت تجربتى على كاهلى وعدت الى الأرض مخلوقا جديدا ليس من السهل عليه أن يفرح أو يحزن .. لكن المذهل فى الأمر هو ما قاله الآخرون عنى .

الآخـــرون :

يصحو من نومه . يعد له الخدم افطاره . يعاملهم احيانا بأدب جم . يثور فيهم أحيانا لاتفه الأسباب . يتوجه بعد ذلك الى الحمام .

يغنى كثيراً بالداخل . يقرأ عدة أسطر متناثرة من الجرائد اليومية ثم يلقى بها على الأرض ببعثرة فى غير نظام . يدير جهاز الموسيقا بصوت عال جدا . يروح ويجىء فى الغرفة بملابسه الداخلية .. يتجه الى التليفون . يتحدث مع المحامين فى قضاياه حول أطيانه وعقاراته ونزاعاته مع الخصوم من الأهل والأغراب . تزداد حدة عصبيته . يتصل ببعض معارفه من النساء . يضحك بجنون .. يرتدى ملابس الخروج . يطير بعربته الى غير ما هدف بسرعة الجنون . يتوقف بأى مكان يخطر فجأة بباله أو يذهب الى أى مخلوق يتذكره بمحض الصدفة . يثير زوبعة مع بائع لأجل بضعة قروش . يهب بائعا آخر « بقشيشا » قد يعادل عشـــرة أضـــعاف قيمة مشترياته . يخرج بندقيته من حقيبة العربة . يتسلى بصيد النورس ورؤيته يسقط فى البحر . يستمتع بالفرجة على رفاق الطائر المصاب حين يحومون حول فقيدهم ويصدرون أصواتا حزينة متعاقبة فى ســـرعة محمومة . عندما يتشـــتتون يسارع باسقاط أحدهم على الفور . يخلع ملابسه ويسبح عاريا فى البحر . يصب فى جوفه زجاجة كاملة من الويســـكى ويأكل بأصابعه بلا ملعقة أو ســـكين وشـــوكة . عمره أربعون عاما . عزب . يتحدث ثلاث لغات بطلاقة . يعيش فى قصـــر على النيل شـــتاء وفى قصـــر على البحر صـــيفا . يقول دائما أنه يلعب فى الوقت الضـــائع وانه جرب الحياة فوق الأرض وتحتها فوجدها غير ذات جدوى . لا يطيق معاشـــرة انسان أو انسانة فترة طويلة .. لا يحب المكســـب كما لا يحب الخســـارة . يبخل بابداعاته الفنية والأدبية على النشر . يقول أنه يأبى نشر هذا الابداع بين أفراد مجتمع معجون بالظلم والجهل والقســـوة والنهم المجنون الى المال ، فضـــلا عن أن الشهرة لا تستهويه على الاطلاق ، لأنها غير واردة فى دائرة اهتماماته التى هى أصلا قطرها صفر .

الحقيقـــــة :

مجنون من يدعى معرفتى فأنا لســــت بالراوى ولســـت بالآخرين . على من يرغب فى الاقتراب منى ليحظى بشرف المحاولة أن يدرك أنه قد يبذل عمره كله دون الوصول الى . هناك راو ، وهناك آخرون ، وهناك قاص هو الذى كتب ما كتب عن كل هؤلاء .. حاول هذا القاص أن يتحدث عنى بلسانه فأهلكته . أراد أن يقول شيئا مختلفا عما قاله الراوى عن نفسه وعما قاله الآخرون عنه ، مدعيا أن ما يقوله هو أنا . أنا أيها الناس شىء مختلف تماما لا يعرفه هذا القاص رغم أنه خالق القصة ، ومن أين لمخلوق — مهما خلق — أن يعرفنى ؟ .

رجـــل مختــلف

قالت لى أمى : « من يحبه ربه يفرجه على خلقه » .. منذ طفولتى لم يفارقنى الحلم بالفرجة على خلقه ، وكلما مرت من عمرى سنة تضاعفت خشيتى من الموت قبل الاستمتاع بهذه الفرجة .. انظر من نافذة بيتنا العتيق المطل على البحـــــر ، متجاوزا بخيالى الأخضر منتهى حد الرؤية حيث يعانق البحر السماء . المعادلة الشرطية صريحة وواضحة : لكى أنعم بالحلم يجب أن أحظى أولا بالمحبة . يطل الســــؤال على عقلى الصـــــغير فى استحياء ممزوجا بالتحدى . كل عام أواجهه بفكر مختلف وأنظر اليه برؤية مغايرة . « هل يحبك ربك ؟ » .. ولا أعرف الاجابة القاطعة .. عندما رســــبت فى مادة الجغرافيا وجاءت بطاقة الدرجات مزدانة بكعكة حمراء صـــــفعنى أبى على وجهى فعرفت أننى بعيد عن دائرة المحبة . لكننى لم أفقد الحلم ورحت أطارد الســــواح عند قصـــــر رأس التين محاولا الحديث معهم بالجملة الوحيدة التى احفظها « جود مورننج » . كانت ابتسامتهم لى تنعش فى قلبى الأمل بتحقيق الحلم . كثيرا ما كنت أختلى بنفسى بعيدا عن اخوتى واصــــدقائى على الشـــــاطىء أتفكر فى تلك المخلوقات التى تعيش وراء هذا البحر الواســـــع . تذكرت قول أبى أن الله أكبر بكثير من كل هذا البحر فهو الذى خلقه . ســـــألته كيف السبيل

الى محبته فعلمنى الصـــــلاة . فرحت كثيرا وأنا أركع خلفـــه بالمســـجد ، ولكنى أحببت ســـيدة جميلة فى عمر أمى أفسدت مخططى لتحقيق الشـــرط ، كنت أحب قبلاتها وانتشى لطراوة يديها وهى تربت على خدى . ويوما نمت بجوارها فى رحلة طويلة فشـــعرت بارتجافات أصابتنى بغيبوبة ساحرة مازلت أستشعر حلاوتها حتى الآن .

ظل السؤال الشـــرطى معلقا حتى قامت الثورة وســـمحوا لنا بارتياد حدائق القصـــر الملكى . عشـــقت هذا المـــكان عشـــقى للبحر . داومت الانســـلاخ من الرفاق والاختفاء بين أشجاره . هناك كتبت أشـــعارا فى حب فتاة زرقاء العينين تسكن بعيدا عن بيتنا . كان شـــعرها الأشـــقر يقربنى من الحلم ، وكانت بشـــرتها البيضاء تنقلنى من حارة « قراقيش » برأس التين الى ميادين أوروبا التى يتجمع الحمام حول نافوراتها فى طمأنينة يتلقى الحب من الناس كما أراها فى الصور . عدت الى الصـــلاة أمارسها حينا وانقطع عنها أحيانا . علمنى الرفاق شـــرب الخمر ومضاجعة النســـاء والفتيات ونســـيت الحلم وضاعت من ذاكرتى المعادلة الشـــرطية . مات أبى فعدت الى الصلاة تلقائيا وعشـــت بين النجوم أعواما فلم أخضـــع لقانون الجاذبية ولم أهف الى صـــدر امرأة ولم يعـــاودنى الحلم . انهمكت فى صراع الحياة اليومى دون أن يفتر حبى لها . بعزيمة فولاذية رفضـــت الاستسلام لشـــكاوى الموظفين المريرة من ارتفاع الأســـعار وقلة الأجور . لم أشـــاركهم أحـــاديثهم اليومية عن المواد التموينية التى تختفى من الأســـواق لتظهر مرة ثانية بأسعار مضاعفة ، فأنا رجل مختلف .

فى معمعة احداث مؤلمة عاودنى الحلم يوما . لم أكن أتصـــور

انه مازال قابعا بوجدانى .. قذفت بنفسى الى البحر وكان ثائرا فى جنون ، ولما عبرت المحيطات الخمســـة وجدت انه لا معنى للاستكانة ولا فائدة من الشكوى فقلت لنفسى « افعل شيئا تقترب به من دائرة المحبة » .

* * *

على فراش الموت جلست بجانبه . حلمى مرهون بقلمه . كان واثقا اننى لم احضر الى منزله للاطمئنان على صحته . انا ايضا كنت صريحا منذ البداية فلم افعل ما يوحى بغير ذلك . جئت فقط للحصول على توقيعه بالموافقة على المهمة . ثلاث دول مرة واحدة . عندما يســـعد « الفقى » تأتيه خاتمتان فى ليلة . تحقق شرط المحبة ولم يبق الا التوقيع . ناولته القلم . أمسكه بيد مرتعشة ونظر الى نظرة غريبة لم أستطع ترجمتها على الفور . فاحت رائحة الموت بالغرفة فقلت فى سرى « يا مسهل يارب » صاح بصـــوت خفيض منهك :

— هاتى لى الحلبة يا ميرفت .

وضع القلم الىجواره مرة اخرى . سقط قلبى بين ضلوعى . لو مات الآن تضيع منى فرصة العمر . ربنا يخليك . انا فى عرضك لا تمت .. فى عرض دينك وقع يا سيادة الوزير .

— يا ابنى .. المفروض أن الوزارة لا تدفع الا أجر الطائرة .

— هذا صحيح يا أفندم ، وهو موضح أمام سيادتك بالأوراق .

— انا لا أفهم شيئا من كل هذه التوقيعات .

الرجل معذور . فاقت نسبة البولينا فى الدم حد الخطر . معجزة أن يعيش حتى الآن . سفر يوم واحد بالنسبة لى الى ما وراء البحر يعنى اضافة سنة الى عمرى .

— هاتى النظارة يا ميرفت .

تريد أن تقرأ .معك حق ، ولكنى أخشى أن أموت قبلك فأنا مختلف فى اى شىء الا الموت .

— دع هذا عنك . اسمح لى أن أقرأ لسيادتك .

— اقرأ .

سمعت شخيره أثناء انهماكى فى القراءة . نام منى . لا حول ولا قوة الا بالله . احضروا له الحلبة والنظارة .

طلبوا منى أن أنتظر فى غرفة أخرى حتى يصحو من اغفاءته . مر دهر قبل أن يفيق . شعرت بخجل من نفسى لكنى لم اتراجع . الحلم أو الموت .

اخيرا وقع على الأوراق بكلمة واحدة . « أوافق » . لكنه نظر الى مرة أخرى نفس النظرة السابقة التى أصابتنى بالرعب قالت لى عيناه الغائرتان بثقة شاب فى العشرين :

— ستموت قبلى ايها النذل .

تجربتى الأولى فوق هذا الكوكب الكوميدى العجيب . أراه كبيرا وأراه صغيرا . لم انس اضطرابى وانخلاع قلبى من صدرى عندما ارتفعت بى الطائرة عن الأرض . قرأت الفاتحة والصمدية والمعوذتين ونجحت فى اخفاء جبنى الشديد عن جارتى الالمانية الحسناء .. دام بيننا حديث ضاحك على ارتفاع سبعين الف قدم من الأرض . من عاداتى الطيبة سرعة تجاوبى مع الواقع . حالا ما الفت الوضع . تخيلت أننى أركب عربة على الأرض ، ثم تكفل النبيذ الفرنسى الأحمر بازالة آثار ما تبقى بنفسى من خوف . انطلقت الطائرة فى اندفاع عجيب . لم يعكر

صفوى فى تلك اللحظات ســـوى نظرة الوزير الذى توفاه الله بعد توقيعه المنحة بعدة ايام . كانت عيناه الزرقاوان ترقبان كل لحظة سعادة تعبر نفسى وترصدان كل خاطرة تبعث فى قلبى البهجة . مازلت اذكر هاتين العينين المنذرتين بالموت حتى هذه اللحظة .

* * *

تناثرت أشـــلاء الركاب المســاكين من حولى ومعها حطام الطائرة المنكوبة . اطلت على العينان الزرقاوان بنظرة شامتة . نظرت اليهما بقوة البقاء فاختفتا الى الأبد . رغم رقة قلبى المتناهية ورهافة أعصابى الهشـــة ، الا أن شـــعرة من جسدى لم تهتز لهول ما حدث . كل شىء محتمل الحدوث فى هذا الـسكون الفوضـــوى العظيم . لم يبق على وجه التقـــريب اثر مادى للطائرة وركابها أجمعين . الزوال يمارس سلطانه المذل . الشىء الوحيد الذى بقى بكامله من بين الأشـــياء هو أنا . لم أصب الا بخدش بســـيط . ســـقطت جالسا على مقعدى ثم ارتددت عاليا بفعل الصـــدمة الميكانيكية ، ولكنى نزلت واقفا بلا صدمة عصبية . الجبال العمـــلاقة والغابات الشـــاسعة ونهر طويل لســـت اعرف اســـمه وصمت مثير وســـحاب كثيف وكائن انســـانى منفرد . حاولت أن أحـــزن على رفاق الطائرة فلم استطع . أردت البكاء فلم اتمكن منه . تحيرت فى أمر انسانيتى وخفت على مصـــيرها . صـــرخت بلا انفعال لســـبب لا اعرفه ، ثم توقفت عن الصراخ لنفس السبب رأيت على البعد منى شعلة من النار خافتة اقتربت منها فى حذر ورهبة وتوجس . قطعة من الطائرة وقد اشتبكت بصدر انثى . من يحبه ربه يفرجه على خلقه . تفرج يا أستاذ كيفما شئت . المستحيل هو المسافة بينك

وبين أولادك وزوجتك وكل من عرفت على الأرض . كل ما مضى من حياتك كان مجرد رؤية هلامية غامضة غائمة لأشباح من الناس والموقف والمبانى والمناظر والأشياء . لا علاقة بين شىء وآخر . درس فى التذوق الموسيقى .. مجنون يقطع أذنه ليهديها الى حبيبته . امرأة تقتل ابنها لتنام مع سائق تاكسى . مدرس يبيع الامتحان ويسكر بثمنه . فتاة تحب وتحلم وتتمنى وتأمل وتبتسم . كاتب عالمى يسخر بصدق من المشاعر الوطنية ويحقر من شأنها . شاب يبحث عن شقة ليعيش فيها مع عروسه . قال ان قلبه يذوب فى حبها . أثار حماسه شفقتى فصليت فى ضميرى لأجله .

وصلت الى حافة النهر وجلست . كان الجو رائعا . من المؤكد أن مياه هذا النهر تصل فى النهاية الى مدن عامرة بالسكان . بعد الشرب يأتى التبول وبعد الأكل يأتى الاخراج وبعد التصلب يأتى الارتخاء وبعد الحماس يجىء الفتور ولا جديد فى الأمر . المسألة لا تستدعى امعان الفكر واجهاد العقل . الحل الحقيقى الأمثل هو صمت الدماغ . رغم ذلك فالتفكير فى قدوم الليل والبحث عن مأوى وطعام وشراب أصبحت أشياء واردة . ألقيت ما بجيبى من عملات بشرية على الأرض . لم تعد الآن محلية أو أجنبية ، مجموعة من الحيوانات الثديية المتطورة — فى كل مكان — تحتكر لنفسها حق توزيع تلك العملات على الخلق كيفما اتفق ، سواء عن جهل أو غرض . ضاع المعنى . الناس كثيرون جدا . ملايين . الحيوانات أيضا والحشرات لا تعد ولا تحصى . أشباح فى أشباح . لو استطعت الامساك بالزمن بين يديك فماذا أنت فاعل به ؟ . الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان . هل يشغلك الآن اتجاه القبلة ؟ . أنت أكبر كذاب رأيته فى حياتك . كم كنت غبيا تافها مصرا عنيدا من أجل لا شىء ! .

حيوان غريب الشـــكل يمرق فى الجانب المقابل للنهر . قرونه متشـــابكة تثير الرعب رغم جمالها وجمود مشاعرى .. طالما حاربت بعنف وشراسة . كانت أسلحتك أشد فتكا بالآخرين فى ميـدان الصراع اليومى · على كل من يمشى على قـدمين أن يشهر سلاحه فى طلب المجد والويل لمن لا يجيد الطعن . دعت لى أمى أن تفتح لى طاقة فى ليلة القدر . انتظرتها اعواما عديدة فى طفولتى وصباى ولكنها لم تنفتح . انفتحت لى أشياء أخرى بدلا منها . قالت لى امرأة : أحبك ، وقلت لعشرات غيرها : احبك .. المنظر الكريه الذى ينتهى اليه كل هذا الحب يؤلمنى كثيرا . لماذا جاء على هذه الصورة ؟ .

مازلت فى عداد الأحيـــاء حتى الآن . لو مر ذو القرون المتشـــابكة أمامى الآن لقبلته . مغلوب مثلى على أمره . ليس لأحدنا ارادة فى وجوده بالقرب من هذا النهر أو بعيدا عنه . على كل منا أن يأكل ويشرب ويتناكح ويموت . اللعبة غير مسلية . سقط العصفور الصغير بطلقة واحدة . قلت لابنى « حرام » . ضحك منى . بدأت امشى . سرت البرودة فى جسدى . كلما ازدادت طمأنينتى الواهمة لمصيرى فى هذا المكان ، ازددت غباء وامتنع العقل عنى . أين لى بامرأة فى هذا الحلم الســـحرى العجيب . ولكن ماذا أفعل بها ؟ . لابد من مأوى وبصـــفة عاجلة . لا فرجة الآن على خلقه ولا عينين زرقاوين فلماذا لم أمت مع الموتى ؟ . ربما كتب لى الخلود فوق جبل تستند مؤخرتى على قمته . تمثال الحياة . فكرة رومانسية رائعة . آدمى تعس يجلس على صخرة ولا يملك أن يفكر . كنت تافها ينتابه القلق لأسباب غريبة وتشغله قضايا هلامية عديدة . العسر واليسر . الصـــغار والكبار . المستقبل . الآخرون . الماضى . العمل . المتعة بنوعيها . الشـــعور الأبدى بالذنب . الشـــهرة ..

طظ . ما معنى أن تكون أشــــهر رجل فى العالم ؟ . كلما ذهبت الى بلد اشار اليك الناس فى الطـريق . هذا هو العبقرى الفذ فلان ابن علان بن ترتان ، بطل العالم فى العلم والفن والرياضة والدين والأدب والعلوم الاجتماعية والفلسفية . ولكن ماذا بعد ؟ . قال شبعان :

ـــ كم هو مؤسف زوال كل هذه النعم فى النهاية ! .

وقال جوعان :

ـــ سوف أشبع من فاكهة الجنة .

أمام مقبرة أبى تشممت تلك الرائحة التى تنبعث بين بدايات الأشياء ونهاياتها . يابنت الكلب لا تعرى نفسك . يا مولانا اتق الله وزن بالقســـطاس . يا اخواننا الحقونا . لا فائدة . بدأت ضروسى تصطك قليلا . هل ولدت فى تلك البقعة البعيدة منذ أربعين عاما ليأكلنى اليوم حيـــوان فى هذا الدغل الموحش ؟ . عجيب أننى لم افزع منه حتى الآن . سواء أكلنى أو أكلته فكلانا يمثل جزئية متناهية فى الضآلة من كل هذا الاتساع المتجه الى صاحبه . رغم هذا فقد قتل الرجل زوجته عندما رأى صـــديقه يتحسس بطنها دون أن تقاومه ، أمعائى دائمة التقلص خاصة فى المواقف الحرجة . من المؤكد أن الفدائى الفلسطينى كان مضطرا الى اتباع هذا الاســلوب البربرى فى القتل والنســف والتدمير وازهاق الأرواح « البريئة » .. قال ان هذه الأرواح ليســت بريئة لأنها تعلم بتضيته الخاســرة ظلما وعدوانا ولكنها تمارس الســياحة والجنس وبعزقة المال على المتعة وأنا والطوفان من بعدى وهلام الهلام هـــلام .. أين راح أصـــدقائى وهل ترى اخطر ببال أحدهم الآن ؟ .. وحتى لو خطرت فما العمل ومـا الفائدة ؟ . لا يختلف الآن أن أتخلى عن احتراسى أو أن أحتفظ

به رغم انه لا توجد صداقة تتسم بالاحتراس والحذر . من المؤكد أننى كنت ساذجا بالفعل حين فكرت فى المال والشهرة والعلم والبنين والبنات والأصـــــدقاء والأحياء وقضـــــاياهم والأموات وتاريخهم .

تعمدت الا انظر الى المضيفة وهى تشرح لنا كيفية استخدام طوق النجاة . ضحكت من هذا العبث وشردت قليلا ، ثم سألت جارتى فجأة :

ــ ماذا تفعلين لو سقطت بنا الطائرة ؟

ــ من المؤكد أننى سوف أموت رعبا قبل أن يرتطم جسدى بالأرض .

قلت لها بثقة مضحكة :

ــ أما انا فقد لا أموت .

انفجرت فى الضحك واشعت من عينيها سعادة غريبة . بدا لى انها لم تضحك من قبل بهذا الصدق :

ــ السـت مخلوقا آدميا مثلنا ؟

ــ لا ، انا كائن مختلف .

ــ ولكنى لا أرى دليلاً على هذا الاختلاف .

ــ ليست الرؤية بالضرورة ، وانما الادراك هو الاهم .

ــ وكيف يمكننى أن ادرك أنك جنى أو ملاك ؟

ــ عندما تسقط الطائرة وتموتون جميعا ثم نلتقى من جديد .

تغيرت معالم وجهها . ارتبكت قليلا . أشعلت لنفســــها

سـيجارة بسـرعة . اخرجت مجلة من حقيبتها وراحت تقلب صفحاتها فى عصبية وتردد . التزم كلانا الصمت . أغمضـت عينيها مدعية النوم ولكنها كانت ترتعد خوفا .

＊＊＊

دب فى جسدى نشاط غريب . بهرنى جمال المنظر الكونى وروعته الخلابة . سليت لصانعه على طريقتى . رحت أتبرغ فى جوانبى وأشـم الأرض وأغترف من طينتها وأكبش فى رمالها وصخورها المتناثرة . ما معنى هذه الجبال الشاهقة الراسخة وما عمر بقائها على هذا الحال وكيف سـتكون نهايتها ؟ . عقلى صغير صغير . لا جدوى من التفكير . رأيت صـورة فى مجلة انجولية لتمثال اسمه « المفكر » . رأيت صورة اخرى فى مجلة مصرية لتمثال فرعونى اسمه « الكاتب » ، الأشباح المساكين لا يفكرون أبدا فى النهايات . أنا اكذوبة كبرى لأن أحدا لم يفهمنى على حقيقتى حتى الآن . كل المخلوقات التى انتمى اليها وتشبهنى أكاذيب مكررة لأن أحدا منهم لا يريد أن يفهم غيره ولا يعرف كيف يفهم نفسـه . لهذا لا أستطيع أن أجزم بمكان وجودى . هل أنا بالطائرة مع المحلقين فى الهواء أم على الأرض بين الحطام البشـرية والآلية .. ولكن ذا القرون المتشـابكة يقترب منى فى حذر . ينظر الى بعينى انسان . يذكرنى فمه بسنم جمل عربى رأيته فى صحراء المغرب ومؤخرة امرأة فرنسـبة رأيتها تخلع ملابسـها قطعة وراء الأخرى فى ملهى دانيماركى على أنغـام الموسيقا . يخيل الى احيانا أننى لم المس امرأة على الاطلاق . قال الكمبيوتر كل شىء ولم يبق الا الموت للكسالى والمتخلفين .. هل تنحاز للغرب ؟ . نعم ، فقد صنع عقلى وأفسده . هل تؤمن بالقومية ؟ . نعم ولا . هل انت وطنى ؟ . الوطنيـة هى انتمـاء

متبادل بينى وبين وطنى ويستحيل أن تتحقق من جانب واحد . وما هو الوطن ؟ . لويزا . آه أيتها الجمرة الملتهبة الفاتنة . كتبت عنك قبل أن أراك أو أعرف بوجودك . عندما رأيتك عشت معك ألف عام على نفس الفراش . الحيوان هو الحيوان . مازلنا نتبادل نظرات الاستطلاع المتوجســـة . لويزا هى خديجة وخديجة هى لويزا والنهاية المقززة لا تختلف . ألا يخترع أحد حبا بلا جنس ؟ . هل تنحاز للشرق ؟ . نعم ، فقد صنع قلبى .. لافائدة من أى شىء . امرأتان تتصــــارعان . البقاء للأقوى . أنا أغســـــل الأطباق وأنظف غرف الفنادق وأنت ترفلين فى الحــــرير ، لكن زوجى صحيح البدن قوى البنيان أنكمش بين ذراعيه فيعتصرنى بحنان لا يمكن أن يتبادر الى حلمك . مقارنة . مقارنة . مقارنة . رجال يتقاتلون . يسفر توزيع الناتج القومى بغباء عن نشأة تفرقة تدعو الى مقـــارنات لا وجود لها فى هذه الغابة ، فأنا وذو القرون المتشابكة متساويان فى كل الحقوق والواجبـات . بل اننى هو وانه أنا حتى لو أكل كل منا نفسه . يبدو بالفعل أننى بدأت آكل نفسى ، اذ فتشت عنها زمنا طويلا بعد ذلك ولكنى لم أعثر عليها .

* * *

طفت مشاعرها العنصرية على السطح . بداخلها يقين يقول أنها خلقت من عجينة غير عجينتى ، بعينيها استنكار وندم لتبسطها معى ، فهى تمثل كائنا أرقى .. آه يا تاريخ ، اعلمى أيتها القحبة أن أية متوالية هندسية لأزمان جدودك تؤكد أن الارتقاء بدأ من عندى ثم استلب فى غفلة من الزمان ونســــب اليك فى وقاحة وادعاء .. كان هذا فى الماضى ، أما الآن فأنتم — للأسف — أصحاب الحاضر وأسياده وأنتم أساتذتنا ومعلمونا ، ومع هذا فأنا لا أحب المقارنة .

ـــ أين تقيمين فى ميونيخ ؟

ـــ ولماذا أدلك على عنوانى ؟

ـــ ربما دعا أحدنا الآخر لتناول فنجان من الشـــاى أو القهوة .

ـــ أين ستقيم أنت ؟

ـــ فى الشيراتون .

ـــ اذن فأنت غنى .

ـــ وما أهمية ذلك ؟

لم أنس وصية أمى قبل سفرى بالا أنكح مشركة .

ـــ المال هو القوة .. الا تدرك هذا ؟

ـــ وهل تحبين المال ؟

ـــ أحب القوة .

ـــ سأنتظرك مساء الغد بغرفتى .. هل تحضرين ؟

ـــ أفكر .

عاودت ادعاء النوم ، لكن عـــلامات التفكير القلق كانت واضحة على وجهها ذى النمش الجميل . الفضاء تحت الطائرة وفوقها ومن حولها يصيبنى بالشرود . السـحب . الجبال . الغابات . البحار . المدن . الأنهار . البشر . الهرب . الشمس والقمر بحسبان . « فليكن معلوما عندكم أن خلاص الله قد أرسل الى الامم وهم سيسمعون » .. انهمك بصرى فى ارتفاع صدرها

وانخفاضه مع تنفسها السريع . يختفى الكنز الثمين عن غير قصد خلف الفتحة الواسعة بقميصها الأصفر . بللت فلتر سـيجارتى برقة ساخنة وجذبت دخانها فى شبق غريب ، وكنت واثقا أنها قادمة .

* * *

فوجئت بهالة من الشـعر الأسود الداكن حول حلمة ثدى الفتاة النيجيرية ذات المذاق الخاص . أصبت بتقزز من صـدور النساء شقراوات وخمريات وزنجيات . لا شىء يبقى على حاله . رضعت من ثدى أمى ورضع ابنى من زجاجة وسقطنا معا من نفس البالوعة الى البالوعة الـكبرى . لو نمت فى هذا الكهف فقد يهاجمنى ذو القرون أو غيره من حيوانات أجهلها . قد أتجمد من البرد . الجوع مقدور عليه فيمكننى أن اكتفى بأكل العشب وأوراق الأشجار ، أما الماء فهذا نهر والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه والله أكبر والنصر للعرب والانجليز والأمريكان وكل الملل والنحل، اما الهزيمة فلست أدرى لمن تكون ولماذا .

اقترب منى أخى . لم أخف منه . تشـممنى فى حذر . لم اتحرك . مس ظهرى بقرونه . لم أفزع . مازالت نوايانا المتبادلة عامرة بحسن القصد . مازلت ،تعجبا لبلادة حسى وانعدام فعلى الشـرطى المنعكس . الجبل خطوط دائرية متوازية ملونة . الأخضر عشب وشجر . الأبيض جليد خفيف . الأحمر اكسـيد حديد. الأصفر تراب وصخور مهشمة . جلس أخى بجوراى فى طمأنينة رائعة . ربت على ظهره . لن يأكلنى .. لن آكله . لا مقارنة . أوقعوا بينى وبين صاحب العمل . فصلت . قال لى كاتب كبير ان المصريين يعجزون دائما عن العمل الجماعى رغم تفرد كل منهم بميزاته الخاصة والنادرة . عندما احتلوا خط بارليف

قلت له : « أنت واهم » . ضحك منى وقال : « بكره تعرف » ..
أما صديقى المتصوف فقد قال بثقة مطلقة ان الله لم يكرم الكنانة الا لأجل الحفنة القليلة من الناس الطيبين الذين يعيشـــون على أرضها ، ولولاهم لتركها تشتعل فقرا وهزيمة وراء هزيمة . الله أكبر . توكلنا على الله . يا رازق الدودة فى الحجر ارزقنى وأنا قاعد . « بعضهم يقول : وأنا نائم » . يا كريم . ان شاء الله ..
الله حى . عقدت اتفاق محبة غير مكتوب مع أخى ذى القـــرون وعشنا معا فى سلام . احتفل بنا اخوتنا من الأشجار والجبال والطيور التى لم أر مثلها من قبل ، ومازلت أعيش معهم حتى الآن ولن اتركهم ما حييت . **النجم والشجر يسجدان** . قالت لى أمى أن تسابيح ما بعد الصــــلاة تدخل الطمأنينة الى القلب . اللهم أنت السلام ومنك السلام واليك يرجع السلام .

* * *

ذهلت لاكتشـــــافى أن بهذه المخـــلوقة قليلا من الحياء . استجبت الى طلبها واغلقت زر الفيديو . قالت الكاذبة :

— انا لا أحب هذه الأفلام الشاذة التى تسىء الينا وتشبهنا بالحيوانات .

— لعلك حالة خاصة بين بنات قومك من النساء .

— بل اننى أكثر واقعية . أفضل الفعل على الفرجة .

كنت أعتقد أن الفرجة التى حدثتنى عنها أمى مقتصرة على الطبيعة . الآن أدركت أنها تشـــــتمل الانسان . المراة بصــــفة خاصـــــة .

— هيا .. فرجينى .

— ليست هكذا تكون الأمور .

ادعيت السذاجة باتقان شديد فكشفت لى عن وقاحة تفوق الوصف ، ثم طلبت منى أن اضربها بعنف وكانت تبكى وتضحك فى آن واحد ، بينما استنفدت كل طاقتى فى اشباعها ضربا حتى منتصف الليل ، حين نامت حضارتان مجهدتان على فراش الحضارة المنتصرة .

فى الصباح عاملتنى كما لو كنت انســانا تراه لأول مرة . زادت قبلاتها الباردة من احتقارى لها . انصرفت بعد أن دعتنى لتنـــاول الغداء بمنزلها فى اليوم التالى ، ولكنها لن ترانى الى الأبد .

* * *

العالم بيتان . بيت للنشــوة يسكنه الجميع ، وبيت للكدر نسكنه نحن فقط . ذبحت يوما دجاجة ذبحا جيدا ولكنها ظلت تجرى فى دمائها لفترة طويلة وتنتفض لفترة اطول ، حتى خيل الى أنها لن تموت . توتر مفاجىء على وجوه المضيفات . اهتزازات غريبة بالطائرة .. عينان زرقاوان . من يحبه ربه .. الكابتن يتحدث اليكم ، نحن نريد الحياة . **نحن نقص عليك احسن القصص ..** العد التنازلى لا يوقفه فزع أو صراخ أو ارتباك . الموت فى الطريق الينا أيها السيدات والسادة . نظرت الى الألمانية فى دهشة .. ارادت أن تسألنى :

— كيف عرفت أن الطائرة ستسقط بنا ؟

قلت لها دون أن تسألنى :

— ألم أقل لك اننى رجل مختلف ؟

* * *

النســـــيان

اليوم يوم عادى من أيام الاجترار المتواصل لكل ما هو غير حقيقى . أما الساعة فهى الخاتمة من مساء ذلك اليوم . والعام لا يختلف عما سواه من أعوام ميتة ، غير أنه يقع باصـــــفراره الشاحب على مشارف القرن الحادى والعشرين . وأما اللحظة فقلب سلب انشراحه واغلقت على الكدر مصـــــاريعه من دون الصفاء ، بينما اقف وحيدا بانتظار شىء يحملنى الى منزلى .. ينشلنى من عدم الى عدم . لم يعد هناك امل فى حل أية مشكلة سواء فى دائرة حياتى المحدودة أو فى محيط القوم الذين أعيش بينهم . العجز سيدنا ومولانا وحامينا وراعينا ، والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

عندما تذكرت اننى نسيت اين كنت ، لم اجد ما يدعونى الى الاهتمام بتقصى هذا الأمر . حتى لو لم اعد الى بيتى فاعتقادى الآنى أن كل الأمور منتهية الى لا شىء . توقفت العربة أمامى فجأة . باغتنى صوت احتكاك العجلات بالأرض وصياح فهمى من نافذة العـــــربة :

ــ اركب

ركبت بآلية لا تعـــرف المفاجأة ، ذكرتنى بمن يســـــمونهم باللاادريين . مصطلحات المثقفين تثير فى نفسى ضحكات من نوع

خاص . صديقى هذا يكتب اسمه بصعوبة . ركبت عربته عشرات المرات من قبل ومع هذا فلســــت اذكر الآن معالمها على وجه التحديد .

— الى اين ؟

كدت اقول له لا ادرى ولكنى فضلت الا اذهب الى البيت فسألته :

— الى اين تذهبان ؟

كان شـــــقيقه جالســـــا بجواره .. حيانى بحرارة وأجاب بسرعة :

— ذاهبان الى أبى قير .

قال صديقى بشهامته المعهودة مع اصدقائه :

— لا شأن لك بنا .. نوصلك أولا ثم نذهب الى أبى قير .

— ليس لدى مانع فى الذهاب معكما .

— المسافة طويلة كما تعلم ، وانا اخشى على وقتك الثمين

يخشى على وقتى من الضياع . لا يعلم اننى أصبحت متفننا فى قتل الوقت بلا عمل . راحت أيام الجنون . ذهب الحافز الى غير رجعة ، اما الأمل فقد سافر فى غياب طويل مخلفا وراءه ابتسامة باهتة .

— ولماذا أبو قير ؟

— لنسأل عن شقيقنا صلاح فقد تغيب عن الورشة لثلاثة أيام متصلة .

تغيب شقيقى عن الوطن لثلاثة أعوام متتالية . بعثت اليه برسائل عديدة ولم أتلق عنها ردا . عندما حضر فى أجازة طويلة لم نلتق الا مرة واحدة عابرة دامت عدة دقائق .

— لعل فى تغيبه خيرا ان شاء الله .

— لا يأتى خير من وراء صلاح .

زحام العربات شديد ، والتكالب بينها على سرقة الطريق أشد . لم أستطع — بعد انقضاء ثلاثة وأربعين عاما من عمرى — أن أعتاد رؤية هذا السباق الجهنمى بين البشر دون ان يترك أثرا خانقا على أنفاسى وحريقا هائلا بأعصابى .

لو كنت واحدا من المتسابقين لهان الأمر . لو كنت رافضا للســــــباق لما اختنقت . لو كنت راضيا عنه لما توترت . المسألة مازالت معلقة على موقفى الغامض من هذا السباق .

حرك فهمى مؤشر الراديو نحو محطة تذيع أنباء العالم . السباق نفسه ، لكنه مزود بأسلحة الكراهية والدمار . سباقنا المحدود أشبه بديدان تتصارع تحت قطعة من الطوب منكرة فى أرض مهجورة يعف عليها ذباب النسيان .

أعلم أن صلاح هو « دينامو » الورشة التى يمتلكها فهمى للأحذية المصنوعة يدويا . وأعلم أن أجره الشهرى يفوق أجر رئيس الوزراء . سألتهما برفق :

— الم ينصلح حاله بعد ؟

أجاب فهمى :

— لا ينصلح حال مزواج مبذر يسرق الحدث

وقال شقيقه :

ــ لعل فى وجودك معنا فرصة لاقناعه بالاهتمام بعمله .

تكثف الزحام وكدنا نصطدم بعربة مسرعة . تصبب العرق على جبينى فتذكرت ما حدث لى بالأمس . صديق حميم أمضيت معه سنوات من عمرى . التقيت به مصادفة بعد فراق اضطرارى لم يدم عاما كاملا . تعانقنا بشدة لكن ذاكرتى لم تسعفنى باسمه . تصبب العرق على جبينى بشدة وكدت أقع مغشيا على من شدة خوفى على عقلى .. صليت على رسول الله واستعذت بالله من الشيطان الرجيم . تذكرت فقط اسم أبيه . خلال حوارنا ونحن جالسين على المقهى أخذت أتصفح ذاهلا ــ بانضباط مصطنع ــ فى مفكرة التليفونات مستدلا باسم أبيه حتى وجدت اسمه . قلت لفهمى باهتمام لم أعرف له سببا :

ــ المهم أن نجده بالمنزل .

تحدث فهمى عن خسائره المتزايدة فى مهنته التى آلت الى الانقراض بعد انتشار الورش الميكانيكية لتصنيع الأحذية .

القى شقيقه باللوم على الحكومة لأنها لم تنشىء معاعد لتخريج عمال فنيين فى صناعة الأحذية والقيت باللوم على نفسى لأننى لست أعرف ماذا أفعل بها بعد هذا العمر الطويل من تفكير عميق قادنى الى موقف معلق وأنتهى بى الى الجلوس بهذه العربة والذهاب الى مكان لا أعرفه لسبب لا يهمنى فى شىء ولكى أفعل شيئا لســـــت أعرفه حتى الآن . انزعاجى الدائم يفقدنى لذة الاستمتاع بالحماس لأى شىء . لم يكن هذا حالى من قبل فماذا حدث ؟ .. لعلها فرصة مناسبة للتفكير فى هذه المسألة من داخل هذه العربة ووسط هذه المئات المتدافعة من العربات .

أعادنى الضجيج القاتل الى رحم أمى ففشتنى لحظة نادرة من الصفاء وتذكرت رقم تليفون منزلى المكون من سبعة أرقام ولم أحد فى ذلك أهمية تذكر ، ويبدو أن فهمى لاحظ ارتباكا على وجهى فقال لى بلا مقدمات :

— أنا أحمد الله كثيرا اننى لم اتعلم مثلك

تعجبت لقوله المفاجيء فسألته :

— لمــــــاذا ؟

— لأننى أشعر بتوازن داخلى دقيق يفتقده كل أصدقائى من المثقفين .

— وأنا منهم ؟

— وانت أولهم . .

— فكيف يكون العلاج لو كان الأمر كذلك ؟

— أن تسلمها لله مادمت تعمل ما عليك .

لم أتوقف يوما عن التأمل فى خصوصية العلاقة التى تربط بينى وبين فهمى . اننى دائم الانجذاب اليه شـــــديد الرغبة فى التحدث معه والاستماع اليه رغم ما بيننا من هوة عميقة فى مجال المعرفة . فى روحه قوة ساحبة هائلة تنشلنى بعيدا عن حلبة الصراع الأبدى المترعة بالهموم والقلق والخوف من المستقبل . . ورغم نزواته الدنيوية التى لم تنته بعد ، الا أننى أرى فى قلبه صوفيا يمسك الدنيا بيديه ولا يدعها تنفذ الى صدره . قال شقيقه وقد اخترقت العربة شوارع أبى قير :

— أدخل من هذا الزقاق .

انحرف فهمى بالعربة الى حيث أشار اليه أخوه ولكنه توقف فجأة ونظر اليه متشككا ثم قال :

ــ أعتقد أنه الزقاق التالى له .

تذكرت بندول ساعة الحائط الكبيرة . كم كرهته . بعت الساعة كي اتخلص من حركته القاتلة . قال أخوه :

ــ أنا لست متأكدا .. فلنجرب .

تصبب العرق من جديد على جبينى وتحت أبطى واحمرت أذناى بشدة وتذكرت أشياء كثيرة سبق أن تذكرتها من قبل ، ثم عدت فنسيتها لشدة ذهولى مما أرى وأسمع .

نزلنا من العربة . قال فهمى :

ــ أظن أن هذا هو البيت

احتفظت بتوازنى بما يشبه المعجزة . قال أخوه :

ــ اعتقد انه البيت الآخر الذى يقع خلفه .

* * *

الأزمـــــة

ضغطت على زر المصعد العتيق ليتجه بى الى الطابق السابع من البناية الشهيرة بشارع قصر النيل . عندما توقف المصـــعد فتحت الباب لأجد أمامى سدا عظيما من حائط خرسانى أصم . أصابنى الارتباك واعتقدت أن المصعد لا يحب التوقف أمام هذا الطابق ، فلابأس من الصعود به الى الطابق الثامن على أن أنزل هذا الطابق بقدمى . الواقع أننى لم أكن مدركا لدرجـــــة توترى الذهنى من جراء قسوة الأزمة على نفسى هذه المرة ، فقد استولى على اليأس وضربنى الندم فى مقتل وراودنى الشعور بالذنب عن نفسى . قلت لا مفر من البحث فى أرض الله الواسعة عن رزق ضاق بى فى هذه الأرض ، وعن لحظة صفاء أشتهيتها فاستعصت طويلا على روحى وتمنعت وتأبت فى عناد عظيم .

فى منتصـــــف الطريق بين الطابقين تبين لى أننى لم أفتح الباب الصحيح المواجه لشقق الطابق السابع ، وانما فتحت بابا مواجها له لا يؤدى الى شىء ، وبناء على ذلك فاننى اســـتدرت متجها الى الباب الآخر ، منتظرا حتى يتوقف المصعد .

لم تكن المرة الأولى التى تنتابنى فيها مثل تلك المشاعر واتخذ فيها مثل هذا القرار ، فلقد تجاوزت من قبلها أزمات عديدة مماثلة ، لكن هذه المرة كان الى كثيفا تجاوز الحزن العميق الى الاكتئاب

وكان لابد لى من الخروج من المأزق بأية وسيلة كريمة والا تعرض وجودى الى خطر مؤكد . حدث هذا منذ ثلاث سنوات على وجه التقريب ، ولست أدرى ما الذى بعث فى ذاكرتى حينئذ بطيف صديقى الاديب صبرى العسكرى .

كان العرق يتصبب على جبينى كما لو كنت خائفا من شىء خطير . فى تلك الثوانى الضئيلة تذكرت طفلى الصغير وشاطىء الاسكندرية وقبر أبى الذى لم أعد أعرف مكانه ومتسولا ينام على الرصيف ومقرئا يتلو سورة الرحمن وجليدا يغطى شوارع زيورخ . خاطر الح على فى اصرار أن ارى هذا الرجل الذى احب شخصه كما احب فنه القصصى تماما ، وكأنما الهمتنى قوة خفية بأن رؤيتى له وحديثى معه أو مجرد جلوسى الى جواره قد أصبح قضـــــاء لا مهرب منه حتى لو لم اقل له شيئا وحتى لو لم ينطق هو الآخر حرفا واحدا .. فتحت الباب ومددت قدمى لأضـــــعها على ارض الطابق الثامن .

منذ حوالى خمسة عشر عاما حذرنى روائى كبير من فكرة التخلى عن المهنة والتفرغ للأدب ، كما حذرنى آخر من امتصاص المهنة للموهبة ، وقبل أن يحذرنى صــــبرى من محظــور ثالث — مادمت قد فقدت السيطرة على ارادتى — فسوف أقول له ان دنيا الكاتب الحقيقية ما هى الا ســـــلسلة من المغامرات الحياتية الطليقة الثرية بتجاربها المتنوعة والتى لا تتاح لصاحب المهنة ورب الأسرة .

شهقت فزعا حين تبين لى أننى أضع قدمى فى فضـــــــاء ويصطدم بصرى بالارتفاع الشاهق المؤدى الى قاع العمارة .. انتفضت بجسدى الى الداخل وأنا لا أدرى أى شيطان يحلو له العبث بى وأنا فى هذه الحال من الارتباك والكدر . ولقد تأكدت

فى تلك اللحظة اننى أعانى بالفعل من توتر عصبى شديد . بمجرد أن أغلقت الباب اشعلت سيجارة محاولا أن أفكر بكل ما أوتيت من قدرة على التركيز فى السبب الحقيقى لوجودى بداخل هذه العلبة الخشبية المخيفة .

آخر حوار دار بيننا كان حول العــلاقة بين مهنة الأديب وأدبه . مررنا بالمحاماة ــ مهنته ــ والهندسة ــ مهنتى ــ ثم توقفنا عند الصحافة . قلت له ان كثيرا من الأدباء الذين يمتهنون الصحافة قد أفادوا منها كثيرا ــ بحق وبدون حق ــ حتى أن بعضهم من ابناء جيلى قد نال شهرة تفوق شهرة الدكتور زكى نجيب محمود ، بل انهم من خلال شبكة المصــــالح المتبادلة قد أصبحوا قادرين على منح تأشيرات الدخول فى دائرة الضوء لمن يشاؤون وسحبها ممن يشاؤون عندما يشاؤون . توقعت أن يثير حماســـه قولى فيعقب عليه بقول أكثر سخونة ، لكنه اكتفى بأن هز رأسه وابتسم ثم طلب لى طبقا من شـــــرائح البطيخ المثلج أعقبه بفنجان من القهوة حيث كنا نجلس بجناحه فى فندق سيسل على شاطىء الاسكندرية .

كنت أمام خيارين لا ثالث لهما .. أن أعود بالمصـــعد الى الطابق الأرضى وأخلص بجلدى من ألاعيبه القاتلة ثم أصـــــعد الطوابق السبعة على قدمى وأمرى الى الله ، أو أن أضـــــغط عشوائيا على أى زر من الأزرار وأجرب حظى مرة ثانية ، ولقد فضلت الخيار الثانى فضغطت على زر الطابق الســـادس وبدأ المصعد فى الهبوط .

بدأت المسألة بضـــائقة مالية عادية يعرفها كل الموظفين ، أعقبها شعور معتاد بالقلق رغم انفراجها وذلك خشية أن تعـاودنى مرة ثانية . تعاظم خيالى وشطح بعيدا بين الماضى والحاضــــر

فرأيت أغبى زملاء الدراسة وقد تبوءوا أعظم المناصب ، وتذكرت صبية الحارة الأشقياء الذين لم يذهبوا الى المدارس يوما وقد أصبحوا الآن من كبار رجال المال . أشفقت على العمر الذى ضاع منى فى غرفة مكتبى بالمنزل تاركا ابنائى للزمن يربيهم ويعلمهم وأنا أولى الخلق بذلك . رسالة الأديب مضنية تقوم على التضحية . اما أن تقبلها بحالها واما أن ترفضـــــها فلا مبرر للندم والتباكى والمطالبة بالدنيا والآخرة فى لحظة واحدة . تضاعف قلقى واحتد حتى بدأت أفكر فى مخرج أغير به مجرى حياتى لأصحح ما ارتكبته من خطأ . أدركت أن الوقت متأخر للبحث عن حل فحزنت . تكثف حزنى فاكتئبت .. واخيرا وجدت نفسى بداخل هذا المصـــــعد مجردا من السلاحين الوحيدين اللازمين لدخول معركة الحياة المعاصرة وهما السلطة والثروة .

ما أسهل الاستسلام وما أتعس حياة تخلو من المغامرة ! .. توقف بى المصعد امام الطابق السادس . لابد أن أحد البابين يؤدى الى الخروج فى التوقيت الصحيح الى طابق معين . وهذا على كل حال أفضل بكثير من العودة فى انهزام الى الطابق الأرضى . بحرص شديد فتحت احد البابين . أنا رجل غير مطلوب لهذا الزمان فى هذا المكان . الطلب هنا منصب على المرســـــيدس والفيديو والخادمات الفيلبينيات أو على اللحوم المجمدة وســــكر التموين والرغيف الآلى .. أما بضاعتى فلا طلب عليها . القصة بضاعة راكدة بائرة . لا يتعاطاها سوى قلة من المجانين من أمثالى ، ورغم هذا فلا سبب سواها يبرر وجودى على قيد الحياة حتى لو قادتنى مهنتى الى مقعد بمجلس الوزراء .

وضعت قدمى على أرض الطابق السادس فى أمان فحمدت الله وجذبت نفساعميقا . فى الواجهة ابصـــرت شيئا أغرب من

الخيال . لافتة عليها اسم صبرى العسكرى الذى قال لى ان مكتبه يقع بالطابق السابع كما اكد لى قوله حارس العمارة وصندوق البريد المثبت بمدخلها . غرقت فى سكون عميق وامتنع العقل عنى للحظة . سمعت صوت عربة الاسعاف يجلجل فى الشارع ورايت جثتى ممزقة عند مدخل العمارة محاطة بجمع غفير من المتفرجين يتدافعون لالقاء نظرة عليها ويتساءلون جميعا كيف سقط المسكين من هذا الارتفاع . بعد قليل كنت اسبح عاريا فى البحر بلا مهنة أو قصة ، بل كنت سمكة حقيقية لها تاريخ آخر ، لم تلبث أن تحولت فيما يشبه السحر الى فراشة هينة ترف بجناحين رقيقين فى فضاء غرفة المكتب الغائصة فى صمت جليل .

* * *

النظريـــة والتطبيـــق

ـ ١ ـ

لحظات من العمر معـــدودة ، ان غفلت الذاكرة عن شيء فلا تغفل عنها طول العمر . تجيء كما يجيء الصفاء لتنير البصيرة وتعتق القلب من همه والنفس من حيرتها . في البدء ظننتها تمتنع عني فلا تجيئني الا بمشيئتها المجردة مهما اشتدت حاجتي اليها ومهما بلغ مني العزم على ارادتها .. لكن السنوات علمتني أن استدعاءها بالصبر والدربة والمثابرة أمر ممكن .

اليوم جاءتني تلك اللحظات الشـــــفيفة الخارقة لتنبئني بما يشبه اليقين أن الحياة الكريمة في زماننا قد أصبحت مستحيلة الا في حالتين لا ثالثة لهما : أن تتمتع اما بالسلطة واما بالثروة واما بكليهما ، أو أن تتمتع بعبقرية فذة للتعامل مع الحيـــاة في غيبة هذين الشرطين .

والحقيقة أن هذا المعنى كان راسخا في ضميري منذ سنوات .. لكن الجديد في الأمر انني الهمت اليوم فقط — ولأول مرة — بصياغة هذا الاحساس الصامت المنكمش صياغة لفظية في ثنايا حوار عابر مع صديق يعبر ازمة . استمعت الى شـــــكواه وانا

الشاكى ، فكنت على دراية عجيبة بالتفاصيل الدقيقة لقصته المؤلمة أثناء روايتها وقبل أن يصل الى نهايتها المأساوية دون أن اعرف عنها شيئا من قبل .

ولقد شعرت بارتياح شـــديد عندما نطق لســـــانى بهذه الصياغة ، وكأنما بتصريحى هذا قد اكتشفت — دون أن أدرى — حلا جذريا لمشـــــكلة وجودى على قيد الحياة فى المكان والزمان الآنيين . حينئذ لابد أن تمحى من الذاكرة كل الأفــكار والأحداث والأسماء الآدمية التى لا تساهم فى اكتشاف حلول جذرية اخرى مماثلة . « **يعز من يشــاء ويذل من يشـــاء** » .. ويهمس لى تلى أحيانا بالحكمة من وراء ذلك « **ويرزق من يشاء بغير حساب** » .

لكننى — كشأن معظم المثقفين — أكتفى بالقول دون الفعل . أقدم التفسير والتبرير لشقائى ، وابدا لم أجرؤ على تجاوز النظرية الى التطبيق ، فسمات الفاشلين دائما هى كثرة الـــــكلام وقلة الانجاز .. وأنا خجل من نفسى لأننى لم أفكر من قبل ولو للحظة واحدة فى امكانية الجمع بين النقيضين . لماذا لا اكون أديبا وصاحب سلطة أو ثروة أو أن أجمع بين الثلاثة معا ؟ .. من المؤكد أنه ليس بالأمر المستحيل ، بل انه الاختيار الوحيد لكل من لا يدعى لنفسه التمتع بعبقرية التعامل الفذة مع هذه الحياة بلا سلطة أو ثروة . لقد تبوأ كثير من زملاء الدراسة الأغبياء مناصب كبيرة ، كما أن الأشقياء الذين كانت تحذرنى أمى من الاختلاط بهم والذين كانوا يكتبون أسماءهم بعناء شديد قد أصـــبحوا اليوم من أثرى أثرياء القوم .. وهكذا تؤكد معطيات الزمان والمكان ان الحصول على السلطة شىء سهل ، أما الحصـــول على الثروة فانه اكثر يسرا وسهولة .

لكن أربعة وأربعين عاما تطل فى توجس وحذر على منحدر العمر . تحـــول بينى وبين هذه النفحة من التفاؤل ، وتهمس لنواياى الحســـــنة بنذر انكماش الطاقة البدنية وتضاؤل الصبر وتراجع الكهولة فى جبن أزلى أمام الشباب الذى لم تعد هناك وسيلة لاسترجاع يوم من أيامه .. وبصريح العبارة فأنا رجل غير مطلوب لهذا المكان . بضاعتى راكدة بائرة لا طلب عليها ، وهى فى النهاية مجرد سطور مكتوبة لا يعنى بأمرها ســـوى قلة من المهووسين ومعظمهم من الفقراء . رغم ذلك فاننى أتشـــــبث بها بأسنانى وأظافرى ، والا أصبح وجودى غير مبرر على الاطلاق ، وهذا ما لا أرتضيه لنفسى لأنه يهدد باختلال توازنى فاكتئابى فقضاء أيامى الأخيرة فى مصحة نفسية .

وأمسك بتلابيب تلك اللحظات قبل أن تهرب منى وتتركنى للهم المعتاد . هدفى أن أبدع وأعيش حياة كريمة فى آن واحد ، وهو فيما أحسب هدف مشروع . فاذا تغاضيت عن عائق الكهولة أمام تحقيق هذا الهدف فاننى لا أســـــتطيع التغاضى عن عجزى وانعدام درايتى بالوسائل المعاصرة وتقنياتها المعقدة لتحقيق أحد شرطى النظرية أو كليهما . ان هذه الوسائل تستعصى على فهمى من جهة ــ رغم اننى لست غبيا ــ كما أنها تتناقض وتتنافر بشدة مع تركيبتى الوجدانية من جهة أخرى . ذلك أن عالى الأمور فى أوطاننا قد أصبح سافلها ، بحيث لم تعد تستقيم أمامى الأشياء الا لو مشيت على يدى ، وهذا ما لا أستطيعه على وجه اليقين .

حتى لو استطعت ونجحت ، فهناك مقاومة شرسة تنتظرنى فاتحة فمها الكريه كاشفة عن أنيابها السامة . فالجالسون على المقاعد الهزازة لن يسمحوا لى بالاقتراب ، والجالسون على خزائن الذهب والفضة لن يســـــمحوا لى بمجرد التفكير فى الاقتراب ،

فالمحاسبة على النوايا أمر وارد ، والغوص فى سراديب السرائر أمر وارد .. حتى زملائى الأدباء الذين انتمى الى قبيلتهم سوف يتهموننى — وما أخبثهم — بالردة والخيانة وبجريمة السعى الى السلطة أو الثروة من قبل أن اخطو خطوتى الأولى لتحقيق احد الهدفين المشروعين .

— ٢ —

فى غمرة شروده عبر الطريق الرئيسى بالمدينة دون ان يرقب العربات من حوله . كان حمله ثقيلا فتمفنطت قدماه على الأرض وارتبكت خطواته مثلما ارتبكت أفكاره وتبعثرت شتاتا فى فضاء حيرته الفسيح . أمامه مباشرة تمكن سائق الشيفروليه من ايقاف عربته المسرعة قبل أن تدهسه . افاق صاحبنا لنفسه ونظر فزعا الى العربة ليلمح صاحبها جالسا على المقعد الخلفى يدخن سيجارا ضخما . خطرت بباله فكرة ان يعتذر له عن خطئه فهو وحده المسئول عن قدميه المفنطتين وذهنه الشارد . اطل الرجل بسيجاره من نافذة العربة وقال له بعجرفة هادئة تكاد تخلو من أثر انفعال :

— حاسب يا حيوان .

ومرقت العربة فى طريقها حين تسمرت عيناه على اللوحة المعدنية الخلفية كمن يرى طوق نجاة بين أمواج بحر عاصف .. كان رقمها مائة بالتمام والكمال . أى ان صاحبها ذو حيثية فى المجتمع ممن لا تعطى مثل تلك الأرقام المميزة الا لعرباتهم . لم يستمتع بلذة النوم كما لم يحظ بيقظة صافية وفى الصباح توجه الى ادارة المرور .

جلس الى مكتب صديقه يدخن سـيجارة فى انتظار نتيجة الفحص .. بعيدة المنال انت أيتها الذرى العالية ، ورغم ذلك فكم من جرذان تلهو فوق قممك الشامخة . لم تطل فترة الانتظار . اغلق الصديق الملف وقال بانبهار :

— أنها عربة الخربوطلى بك يا رجل

منحك الله الموهبة وأنعم عليك بالقدرة على الابداع فى اتعس ظروف انسانية على هذا الكوكب الغريب . عليك أن تدرك هذا وتحمده .

— ومن هذا الخربوطلى ان شاء الله ؟

— يبدو أنك لا تعيش معنا .. الا تعرفه حقيقة ؟

بل اننى أعيش معكم أيها التعس منذ زمن طويل ، ولكنى لست أعرف دليلا حقيقيا يؤكد على ذلك .

— ومن أين لى أن أعرفه ؟ .. اسـألنى مثلا عن نجيب محفوظ أو نيكوس كازانتزاكيس .

— يا أديبنا العظيم .. هذا الرجل يمتلك ما لا يقـل عن خمسين مليونا من الجنيهات .

هات أدلتك . اذن فأنا أعيش بينكم لا معكم . موجود وغير موجود .. حياتى ميتة بكم ، وبدونكم يشوب موتى الحياة .

— وهل يحول هذا دون امكانى أن أتقدم بلاغا ضده بتهمة السب العلنى ؟

تلقى صديقه السؤال باهتمام مشوب بالحذر ، ثم قال بهدوء وثقة :

ـ لهذا السؤال اجابتان . افترض فى الأولى أنك تعيش معنا فأجيب بنعم ، وأجزم فى الثانية بأنك مغيب عنا تماما فأجيبك بلا ..

هام فى الطريق وتمفنطت قدماه من جديد . أى مخلوق على هذه الأرض يمكنه الآن ان يدرك مدى ألمه أو أن يستشعر مرارة غضبه ؟ .. حيوان ؟؟ ..

ـ ٢ ـ

لم أكن مستعدا للاستماع الى عبارات المجاملة والمساندة من أصدقائى الأدباء بلعن أهل الثراء وسبهم والصاق كل الصفات الرذيلة بهم ، لأننى مؤمن بقضية الرزق والرزاق ، ولأننى أيضا لست اعتقد حتى هذه اللحظة فى ان كل الأثرياء لصوص .. ما احرانى اذن أن اجنب نفسى نظرة شماتة ماكرة أو حكمة ناعمة خبيثة اسمعها من احدهم حين ينصحنى مؤكدا انه لا عليم فوق علمه ولا عارف فوق معرفته .. فلمن اتوجه الآن بقهرى وهزيمتى وآدميتى المنكرة ؟ .

قادتنى قدماى الى عم ابراهيم بائع المجلات والصحف العجوز .. حيانى بحرارة وقال :

ـ وحد الله يا استاذنا ودع عنك هذا الكدر

حاولت الاستجابة الى دعوته فوقفت اتصفح بعض الكتب التى وردت اليه مؤخرا . كنت اقرأ العناوين والفهارس دون أن أفهم شيئا ، اما الزحام فكان شديدا ، ولقد عجبت أن يزداد هذا الزحام أمام بائع الكتب وفى مثل هذا القيظ الشديد .. أنا لا أفهمكم ايها الناس . تساقط عرق غزير من جبينى ومددت يدى تلقائيا الى جيبى الأيسر لالتقط منه المنديل ، بينما تعلق بصرى بجريدة عربية

غالية الثمن . كنت أنوى أن اتصفحها ثم أعيدها الى مكانها استنادا الى علاقتى الطيبة بعم ابراهيم .

فوجئت بشاب عملاق البنية يقبض على يســـراى بعنف باحدى يديه ثم يمسك بقميصى من صدرى بيده الأخرى صائحا فى ثورة وهياج :

— تريد أن تسرقنى أيها اللص ؟

لم أدر ماذا حدث لى . فجأة وجدت نفسى واقفا أمام المحقق بمبنى الشرطة والصفعات تنهال على وجهى وقفاى من كل الجهات الأصلية .. العملاق يجلس أمامى يحتسى القهوة من فنجان أنيق ، والذهول قد استبد بى وبقهرى وهزيمتى وآدميتى التى ســـبق انكارها مرة أخرى من قبل .

قال المحقق بلهجة ساخرة :

— أتترك كل من بالميدان وتسرق « همام » بك ؟

— هذا جنون . أنا أسرق ؟

— لاداعى للانكار . لقد أخرج يســـراك من جيبه وهناك شهود على ذلك .

— ســـوف أبرق الى وزير الداخلية بما لحقنى من اهانة وأذى على أيديكم .

انفجر المحقق والعملاق فى الضحك معا وقال الثانى :

— صحيح انك لص وقح !

ثم لم يكتف بذلك ، وانما قام ولكمنى فى وجهى بينما انهمك المحقق فى حوار تليفونى . بعد قليل أقفل المحضر وأمر المحقق أن أبيت محتجزا فى « التخشيبة » مع اللصوص والمجرمين حتى تبت النيابة فى أمرى ظهر اليوم التالى .

اصـــدر امرا قاطعا بالقاء القبض على كل من الخربوطلى وهمام مع تجريد الأول من أمواله والثانى من رتبته الوظيفيـــة المهمة . قادهما ضابط كبير الى مكتبه بالوزارة . حاول الضابط أن ينافقه بأن يسب المتهمين أمامه فنهره وطرده من مكتبه . وقفا أمامه براسين منكستين . قال لنائبه بهدوء :

— لن نجرى التحقيق هنا

— أين نجريه اذن يا سعادة الباشا ؟

فى عزبتى بالفيوم

قرر على كل منهما عددا محددا من مؤلفاته القصصية ، عليه أن يقراها ويجيد استيعابها قبل أن يبدأ التحقيق معه . ولقد أمر لهما بالطعام والشراب وحسن المعاملة خلال فترة اســتضافتهما بالضيعة لحين أن ينتهيا من دراسة الكتب المقررة .

وعندما انتهى المتهمان من القراءة الاجبــارية لهذه المؤلفات تأكد بنفسه من ذلك ثم سأل أولهما بثبات شديد :

— هل يستطيع حيوان قراءة ما كتبت ؟

ثم ســـأل الثـــانى :

— هل يمكن للص أن يضيع عمره فى كتابة ما قرأت ؟

فكانت اجابتهما بالنفى المؤكد .

بلغت ســعادته ذروتها اذ ثبتت صحــة نظريته بما لا يقبل الشك مجالا .. خلع ملابسه وراح يرقص نشوان بين أشــــجار المانجو .. ولعله بكى من شدة السعادة حتى انهارت قواه فرقد تحت شجرة ثرية الظل ونام نوما عميقا .

لم يستيقظ الا عندما جذبه الشرطى من قفاه وألقى به فى العربة « البوكسفورد » التى تحمل المتهمين الى النيابة .

مخلوقـــات برمائيـــة

— ١ —

كسارق الكحل من العين يسرقنى الزمن لأجد نفسى ملتفا بعباءة من الخوف غارقة فى البلل . اربعون عاما من مطر ينهمر فوقها بلا انقطاع . مدرسة أولية لتحفيظ القرآن وجامعة لتحفيظ المحاضرات ثم وظيفة لحشو المعدة فزواج لست أعرف لماذا وابناء يبدو أنهم خلقوا من نار ابليس . تعودت عمرى أن ينفذ المطر الى عظامى فلا أرتعش . تصنع منى الاستكانة مخلوقا برمائيا زائغ العينين . يتنفس ولا يتنفس . يعرف ولا يعرف . يفهم ولا يفهم . يريد ولكنه لا يستطيع أن يريد .

أقول لنفسى أما آن لهذا المطر اللعين أن يكف ؟ .. ألا من مساحة متناهية فى الضآلة على ارض هذا الكوكب أجفف عليها نفسى وابدل عباءتى المهترئة ؟ .. كثيرا ما قلت لنفسى اشياء كثيرة ثم نسيتها . اليوم يهزنى الأسى من قاعى وأرتجف بعنف كما لم أرتجف من قبل ، فاليأس قادم لا محالة ، والموت من دونه فى غير حياء .

اللعنة يا مطر ويازمان ويا مكان فانى خالع عباءتى لأجرى عاريا ولن أموت .. بالأمس عادت من ســـــفرها الطويل . مزق

صوتها بالدهشة أسمال عباءتى فأتى عليها . لماذا لا نستعيد ذلك اليوم العاشق الذى عشناه معا منذ عشرين عاما ؟ .. وضعت سماعة التليفون واندفعت بجنون الى عربتى منتشيا بادراكى لما سوف أفعله على وجه التحديد . سوف أستحضر معها ذلك اليوم الذى مات بروحه ولحمه ودمه وأدق تفاصيله الأخرى . الموسيقا . الكتب المتناثرة فى فوضى رائعة . السجائر والمنافض .. المشروبات . الضحك حتى البكاء والجرى بالغرفة الضيقة .. النوم على الأرض . العنف اللذيذ ولحظات الانتشاء الصارخة ببهجة الحياة . الرقص عاريا والنقاش الحاد حول الوجودية المؤمنة ونظيرتها الملحدة . السخرية من المتزوجين والحكام الذين يأكلون رعاياهم .

بيدى سأوقف انهمار المطر . أجفف نفسى . أرتدى حلة أنيقة . أرش العطر الفاخر تحت أبطى .. وأذهب اليها .

— ٢ —

تجلس الى جوارى . أقود العربة وزلزال عتى يعصف برأسى . بين يديها طفل يستحلب ثديها . خطوط القلق والأمومة تتشابك على وجهها . انحناءتها الحنون على طفلها تفجر بروحى زلزالا فأكاد أصطدم بعجوز يعبر الطريق . طفلها الثانى يجلس على المقعد الخلفى . يصفعنى على قفاى فأنهيه بعصبية ولا ينتهى .. يرمقنى بعينى رجل .. يفح صوته كثعبان سام :

— عربتك حلوه يابن الكلب

أما هى فترمقنى بعينين برمائيتين وتسألنى برجاء المنهزم :

ـ الا تساعد زوجى فى الحصول على وظيفة اخرى ؟!

اما أنا فأبحث عن ترعة فى طريقى لأغوص فى قاعها بكل ما تحمله العربة من كائنات وزلازل وأمطـــار لم تجف .. انقلب مخلوقا برمائيا من جديد . يزداد ارتجافى بفعل المطر والعبـــاءة المهترئة المبللة يصفعنى ابنها على قفاى بعنف . واحتضن اليأس .. ويحتضننى .

* * *

المظـــاهرة

ولدتنى أمى . مات أبى . كنا فقراء . مررت وحيـدا بين السنوات بجهد ناء به عظمى الطرى وقلبى الأخضر .. كبرت .. فهمت .. أدركت .. تبادل العمل والأمل انهاكى وتحميلى فوق ما احتمل . تعزيت بهما وتعزيا بى وظللنا نتبادل الانهاك والعزاء طيلة أربعين عاما متواصلة حتى عاد يوم مولدى .

أتأمله الآن مثلما يتأمل طفل لعبة غامضة . حصيلتى منذ ذلك اليوم وحتى هذه اللحظة عذاب صامت يأكلنى فى هدوء بين ايمانى بضرورة التسليم وعشقى لحلاوة التمرد . لو سلمت فأنا انسان فاشل أو سيىء الحظ أو منحوس الطالع أو كما قيل لى « معمول لى عمل » . ولو تمردت فأنا مطالب بالمزيد من العمل المنهك والأمل الأكثر انهاكا . ولقد مللت العمل بحق . لم أعد أقدسه بل أنى كرهته . ان الأيام تمتهننى والسنوات بتحريض من الأمل المخادع الذى يتلذذ باستعبادى وقهرى وخضوعى لسطوته وانهماكى فى العمل من كعبى قدمى حتى فتحتى أنفى .

أتأمل الآن ما يحيط بى من دوائر . دائرة بعد دائرة . الأهل .. الأقارب . الأصدقاء . الجيران . زملاء الدراسة . قرنائى فى العالم المتقدم .. أمسك بورقة وقلم لأحيل تأملى الى احصائية عامة بقدر ما تتيح لى ذاكرتى من معلومات .

تقول الاحصائية ان نســـبة كبيرة فى كل دائرة تشـــير ــ نسبيا ــ الى النجاح والتقدم والانطلاق فى آفاق الحياة .. لا دماء تسيل من قدمين حافيتين . لا رمال ولا أشواك ولا قنابل ولا سجون ولا أحزان . لا أنوف تنزف الدم اما لشدة الاجهاد واما من قسوة التعذيب .. وانما حب وزواج وأبناء وبنات وابتسامات هانئة وركوب طائرات وسفن ، وعيون ترى وتستمتع ، وقلوب تنبض بحب الحياة التى أعطت بقدر ما أخذت ، وربما أعطت دون أن تفكر فى الأخذ على الاطلاق .

يا الهى .. لقد بذلت المستحيل ولن يمكننى بذل المزيد اعتبارا من اليوم .. اليوم اضراب الى أجل غير مسمى ودون أدنى شعور بالذنب . اليوم أخرج بنفسى فى مظاهرة صاخبة ضد عمرى .. أتحدى مخلوقا على وجه هذه الأرض يعلن أننى آذيته يوما أو جرحت احساسه . أتحدى مخلوقا على هذا الكوكب المتكور فى غباء أن يتهمنى بالكسل أو التخاذل أو التواكل . أنا أؤمن بأن الباب الذى تدفعه ريح المقارنة لا ينفتح الا على جحيم ، ولكنى سأدفع هذا الباب بكل عنف وأهلا بالجحيم وزبانيته . ســأقود بنفسى مظاهرتى ضد هذا العمر الظالم . لن ترهبنى أســلحته القدرية الجبارة . سوف أضرب المرض والشيخوخة بحذائى حتى أقضى على ظلم السنين .

ياه .. لقد ســـخنت وارتفعت درجات حرارتى الداخلية والخارجية فوق حدودها الطبيعية . هأنا ابتسم من جديد ولكن لماذا لا اجرب ولو مرة من باب حب الاستطلاع ؟!

ــ أهلا يا مولانا الشيخ . السلام عليكم .

ــ .... ؟!

— هاهو ذا اسمى واسم أمى وهاهى ملابسى الداخلية . افعل بهم ما تشاء وانا بانتظار رأيك .

يقول انه سيحدد لى اسم الفاعل . ذلك المخلوق الثرى الذى يقف عثرة أمام نجاحى ويجعلنى آكل سنواتى بعينين معصوبتين بينما ادور مربوطا فى ساقية . هأنا اتعزى بملكيتى الوحيدة : ابتسامة لا تعرف المرارة وانما تحيل الصبر الى مايشبه الوهج النورانى الشفيف الذى يضىء لى الحياة .

تشبثى بهذه الملكية يقينى الكثير من الأضرار . يحول بين اليأس وبينى . يجعلنى أستطيع الوقوف على قدمى فى مواجهة العمل والأمل والسنوات .

يقولون ان هذا الشيخ مبروك وواصل ، وانه لا يتقاضى مقابلا عن كشفه للأعمال . سألته فى هيستيرية مدفونة فى قاع ضميرى :

— اغثنى .. من الفاعل ؟

— أصبر قليلا يابنى .. لا تتعجل

وصبرت ولم أتعجل وانتظرت من جديد . لكنه لم يدلنى على الفاعل حتى اليوم .

شاخت سنواتى . صرت أعيش على فتاتها مثلما تعيش على فتاتى . هاجمنى المرض ، لكن ابتسامتى لم تذبل وجذوتى لم تنطفىء . واليوم حان الوقت الحقيقى لأقود مظاهرتى من جديد ..

فاما قاتل واما مقتول .

* * *

الخنـــزير

— ١ —

امسكت بتلابيب زمانى فى لحظة تبين لى فيها اننى تحولت بالتدريج الى خنزير كسول عفن الرائحة دون ان ادرى . كنت حتى سنوات قليلة مضت اهتم بأمور غريبة رايتها جوهرية كالفن والمهنة والمال والمرأة . لم يخطر ببالى يوما ان تستمر حياتى دون حافز منها جميعا او من بعضها على اقل التقديرات ، والا فأى حافز آخر يمكنه ان يدفعنى الى العمل الدؤوب والمثابرة القاتلة على الغوص فى عذابات الأيام وملذاتها وعلامات استفهامها المحيرة ؟! .. أما ارتباطى بأســـــرتى فقد كان بغير حاجة الى أن ادخله فى زمرة الحوافز لأننى اتساوى فى شأنه مع غيرى من الآدميين العاديين ذوى الطموحات المتنوعة والعقول السوية التى تتسم بالاتزان ..
لقد بدأ التحول بظهور ذيل صغير فوق منتصـف مؤخرتى بنهايـة عمودى الفقرى .

قلت لنفسى لقد كبرت يا ولد وتجاوزت الاربعـــين بعدة سنوات . لم تعد نفسك تتوق الى ما كانت تشتهيه من قبل فتبذل من دونه المستحيلات وتبعثر الطاقات وتستهلك السنوات . كارثة أن يزحف هذا الاستسلام الكريه للحياة على قلبك الثائر وعقلك

المشتعل بوهج جهنمى لا حد لجبروته . لم اعبأ بذيلى الصغير كما ان احدا لم يلحظه .. حتى الذين لاحظوه لم يهتموا به كثيرا لانهم كانوا اكثر انشغالا بكروشـــــهم المنتفخة وافواههم المفتوحة على اتساعها .

سألنى الناشر المفلس على سبيل المجاملة فحسب :

ـــ أين قصصك ورواياتك ؟

ـــ لم اعد اكتب

ـــ لمـــــاذا ؟

ـــ فقدت الرغبة والموهبة والحافز

قال لى بثقة المجرب الذى عرف كثيرا من امثالى من المجانين :

ـــ أزمة وتزول ثم تعود الى عالمك .

تركته لأوهامه ومضيت الى نفسى البعيدة حاملا فى شرايينى دماء بنى قومى التعساء ، فنصحنى الطبيب باطلاق العصافير من أقفاصها . تضخم وجهى واستطالت اذناى واحببت النوم حبا جما وبلت على زمانى .. الكاتب القدير والفنان العظيم ! .. الأميون يطحنهم الغلاء وتنهك قواهم أزمة الديون وصراخ الكذابين وسيادة الأنا وسباق المال وهبوط الذوق واعتياد العين على رؤية القبح والأذن على سماعه .

قلت لرئيسى بحزم :

ـــ أنا مســـــتقيل

ـــ لمـــــاذا ؟

ـــ لست أريد أن أعمل بعد الآن

ـــ نظر الى مستنكرا حين أصدرت من فمى عواء غريبا

ـــ وكيف تدير حياتك بلا مصدر رزق مضمون ؟

ـــ بالأمس وضعت كل ما أملك فى البنك بفائدة شـــهرية تكفينى .

فى ذمة التاريخ صراعات ضارية وقتال حياة أو موت وتدخين آلاف من الســـجائر وتعاطى حبوب مهدئة وعقد مؤتمرات ورسم خطط وتدبير مؤامرات تحت شعار صاغه على بن أبى طالب يقول فيه أن « الغدر بأهل الغدر وفاء عند الله والوفاء بأهل الغدر غدر عند الله » ، بحيث لم يكن أى الأمرين أكثر وضوحا من الآخر : أهو الحق يراد به باطل أم أنه الباطل يراد به حق ، أم أن الأمر قد اختلط بينهما .. فلتذهب قراءاتك المهنية الى الجحيم حاملة معها مئات من براءات الاختراع الحديثة والمجلات العلمية المتطـــورة والأبحاث التى تفنى العمر دون جدوى .. كنت تبيت ساهرا حتى الصباح امام تجربة معملية صغيرة ، تصفر وتغنى وتدخن .. لكن ما جدوى هذا كله حين يفتر الحماس وتستحيل معاشرة الأيام الى ما يشبه الصمت المتبادل بين عاقل ومجنون ؟!

تهلل وجه زوجتى بالبشر والفرحة :

ـــ مبروك .. فرصة العمر لنا ولأولادنا

ـــ لن أسافر

ـــ أنسيت مخططاتنا لتجديد أثاث البيت وشـــراء الذهب للبنت وقطعة الأرض للأولاد ؟

ـــ كنت أعمى فأبصرت .

ـــ بل اننى أرى الصواب فى عكس ما تقول

ـــ لأنك تنظرين ولا ترين ، والا لانتبهت الى اننى اصبحت امشى على اربع !

فى بالوعة النسيان سقطت مشروعاتى لجمع المال ، واعلمى يا زوجتى العزيزة أن نظرتى للمال قد تحولت ـــ لسوء حظك ـــ الى نظرية ، والنظرية تنتهى الى أن المال لا يستحق معشار ما كنت أوليه قديما من أهمية ، فلا سفر يجدى ولا غيره ، وانما أنا فى شوق شديد الى سفر آخر اقطعه الى نفسى المجهدة من عناء الرحـــــلة .

... ياه ! .. لقد تمنيت كثيرا .

ـ ٢ ـ

... وأن تحبنى تلك الفتاة الجميلة الصامتة ذات العينين الخضراوين والنظرة الساهمة الشـــاردة ، وربما اتزوجها يوما فأرتدى « البابيون » ليلة الزفاف لأننى لســت أحب رباط العنق المدلى من الرقبة وأن أحصل على شهادة جامعية عليا فى السياسة والاقتصـــاد تتيح لى أن أعمــل سفيرا لبــلادى فى دولة متحضرة فأتحدث الانجليزية بطلاقة وأركب الطائرات واتفرج على دنيا الله الواســـعة بمحيطاتها وجبالها وأوديتها وغاباتها وأنهارها وجليدها وصحراواتها والتقى بشعوبها وقبائلها وأحبهم فأستمتع بالغاية من وجودى وأرى الحياة شيئا جميلا ولا أخاف الآخرة وحين أبصـــــر وردة تتفتح أكون قادرا على الاحساس الحقيقى بروعة ما أبصر وما استبصر وأن تمضى سنوات حياتى طويلة عريضة عميقة ولكن كما يمضى يوم جميل واحد نتمسك أمى بيدى وتقودنى الى بائع الحلوى وأن يكون لى أب على قيد الحياة أسأله ليجيب وأمد يدى ليعطى وأفتح قلبى ليسمع فأستلهم الثقة بنفسى من ابتسامته التى

لم ارها لاننى لم اره وان أرى موكب الملك واصـــــافح رئيس الجمهورية واتطوع لحمل السلاح واســـبح عاريا فى البحر مع الأسماك الملونة وأحصل على العديد من البطولات الرياضـــية ثم أمتنع عن اكل اللحوم الى الأبد واجرب لذه تدخين السجائر مع صبية المدرسة لحظة الغروب فى حديقة مهجورة الا من العشاق وأن أجرؤ على مطالبة احد بشــــراء دراجة الهو بها اذ قال لنا المدرس ان عليا بن أبى طالب قد قال : « لو كان الفقر رجلا لقتلته » .. وأن اتجنب الحزن والكدر وانطواء النفس على الالوان الرمادية والقلب على القاتمة فما اروع البهجة وان اقرأ واقرأ واقرأ وحين يهاجمنى وغد أستطيع أن أوفيه حقه من الضرب وحين أولد لا أصرخ كثيرا وان ترضعنى أمى من ثديها لا من الصيدلية وان اكون انسانا حين أموت لاننى احب رائحة الطبيعة حبا يجعل من صــــدرى كونا فســيحا وان اظل محتفظا بقدرتى على الانبهار والدهشة وان ...

— ٣ —

لو كان الأمر يأسا لما دفعنى الى تأمل ظاهرة الفتور التى انتابتنى والغوص فى أعماقها ، فقد ثبت أننى ذو باع قـــديم فى اجتياز دروب الحياة المظلمة حين ضغطت الأيام على عنقى ولوت ذراعى وحاولت كتم انفاسى فلم تفلح المسألة عند خنزير مثلى أكبر بكثير من اليأس . انه شعور قوى واثق يتسلل الى نفسى بهدوء شديد .. قد تكون طمأنينة مجهولة المصدر وقد يكون الايمان .. أو ربما كانت الحكمة تغزو عقلى الملتهب بالجنون بعد أن شـــاب شعرى وتشابكت تجاعيد الزمان على وجهى واستمرات الحياة فى حظيرة تفوح برائحة المخلفات .. اللعنة على هذا العالم الذى يعدو بأقدامى الأربعة فى سرعة صاروخية الى الفناء .

قالت لى المجنونة التى احببتها فجاة :

— لكن بريق عينيك مازال متأججا

— تعلمين اننى متزوج

— لست أغازلك ، وانما أساعدك على استرداد نفسك لتعود آدميا من جديد .

— هل تراهنين على حدسك بزواجى منك ؟

— ٤ —

تولت الفطرة زمام أمرى والتمست المشورة من قلبى والدفء من قلبها وخيل الى أن الحياة الحلم قد عاودت الدبيب فى روحى فأكلنا الثمار بطينها وافترشنا العشب الشيطانى وارتوينا من نبع لم نعرف كيف اهتدينا اليه .. وحين سقط المطر شعرت بطهر لم أشعر به من قبل ، فخرجت من الحظيرة بلا ذيل ووجدت نفسى أمشى على قدمين .. ولكنى فوجئت بأن باب الخروج يفضى الى حظيرة أخرى تفضى الى ثالثة الى رابعة .. ولم أعد أميز صوتى بين صياح الآخرين .

* * *

مذكـرات ناجـح معـاصر

سأقول لكم الحقيقة ، فأنا رجل صـادق مع نفسى . لقد اكتشفت مؤخرا أننى أمارس حياتى بينما أعيش حالة من الازدواج الارادى للشخصية . لاداعى للتعجب فأنا وليد عصـرى وناتج طبيعى لافرازاته الكائنة . لقد أصبحت اثنين فى واحد يحـاول السيطرة عليهما معا حتى يعيش .. ويحق لى أن أفخـر بأننى عجزت أن أكون أحدهما فقط لأن هذا كان يعنى موت ثلاثتنا ، وأنا أعشق الحياة .. فلما كان الأمر كذلك فاننى سجلت لنفسى بنفسى شرف المحاولة ثم اكتفيت بذلك ، واقسمت الا أكررها مرة ثانية ، وبذلك نجحت فى مواصلة الحياة .

● **المجنـــون :**

كلما وطئت قدماى شاطىء حقيقة كانت فيما مضى حلما ، تسربت من بين يدى أشياء عزيزة ما كنت أجرؤ على التفكير فى الحياة بدونها قبل أن أتجاوز الأربعـين . تذمرت من تكرار تلك الظاهرة وقلت أن الدنيا تسىء معاملتى . كلما أعطتنى شيئا طلبته سلبت منى شيئا آخر لا غنى لى عنه .

استسلمت للتذمر من الحياة رغم حبى لها وهاجمنى اليأس فلم أقو على مقاومته . شعرت بدوائر الحصار تضيق حول رأسى وقلبى حتى بدأت تعتصرنى فلم يبق لى الا الجنون .

حاولت أن أستسلم له كما استسلمت لليأس فلم أستطع . قوة عنيدة جبارة تفجرت فى كيانى رافعة راية التمرد . تكاتفت معها هموم الحياة اليومية ومسئولياتها فأصبح من المستحيل أن أجن .. ولذا قررت أن أستبدل بالجنون ادعاءه حتى أنال كامل حريتى فى أن أريد كل شىء من الحياة .

● **العـــــاقل :**

... ولكن من المؤكد أننى رجل مجنون ، والدليل على ذلك هو أن اكتشافى هذا قد تأخر أربعة وأربعين عاما ، فليس من المعقـــــول أن أتهم بالجنون زوجتى ورئيسى فى العمل وأبنائى ومصلحة السكة الحديد ورئيس الوزراء وهيئة التليفونات والبلدية والباعة الجائلين وعسكرى البوليس وسائقى التاكسيات وأطباء التأمين الصحى وموظفى السجل المدنى ورؤســـاء الشـــــركات الصناعية وغيرهم .. وغيرهم . غير معقول أن يكون كل هؤلاء الناس مجانين وأنا العاقل الوحيد .. ما من أحد منهم سمح لى بلحظة سعادة أختلسها من عمرى الشقى ، ورغم هذا فقد حاولت أن أتجنبهم — ومعهم بعض أصدقائى — لكنهم طاردونى بكذبهم وانتهازيتهم حتى فى عزلتى .

أنا لا أريد أن أرى هؤلاء الناس ، وفى الوقت ذاته لا أفكر فى الانتحار . ولذا فقد اهتـــــديت الى حل جهنمى يريحنى من وجوههم : سأدخل السجن !

● **حـــــوار :**

— لن أخضع لأى قيد من الآن فصاعدا . سوف أحيا كما أريد .

ـ كذلك أنا .. لن اكون مسئولا عن أى شىء ولن أحتاج لأحد ، حتى الطعام سأحصل عليه مجانا .

ـ لكنك ستخضع لقوانين السجن

ـ وأنت أيضا ستخضع لقوانين العقلاء

● عقـــل الجنـــون :

رغم أننا تبادلنا الشكوك فى نجاح محاولتينا ، الا أن اصرار كل منا على خوض تجربته كان رائعا . اذ خلع أولنا ملابسه أثناء جلوســه الى مكتبه الفخم وجلس عاريا تماما . رفع ســـماعة التليفون وأبلغ أكبر مسئول فى المؤسسة التى يعمل بها أن جنودا بلغاريين يقتحمون عليه غرفته ومعهم ساحرة سنغالية نجحت فى تحويله الى فأر صغير .

أما ثانينا فقد انتقى عربة فاخرة تحمل علامة معدنية مهمة فأتى عليها بفأس كبيرة حتى استحالت الى حطام ثم جلس فوقها يدخن سيجارة ..

* * *

ســـيق أولنا الى مستشفى الأمراض العقلية وثانينا الى السجن .. وبقينا هناك ـ سعيدين ـ حتى الآن !

الحصـــاد والمكافـــأة

— ١ —

كالنار تؤججها ريح عاصفة ، ســـــرى النبأ من البيت الى الجامعة الى المستشفيات واقسام الشـــرطة وبيوت الأصـــــدقاء والاقارب . أصبح اختفاء الدكتور عاصم عبد الرحيم الأستاذ بكلية الآداب حديث الصحافة والمجتمع بعد أن عجز الجميع عن العثور له على اثر فى أى مكان .

لم تجد الزوجة مبررا لاختفائه تصرح به علنا للأجهزة المعنية بالبحث عنه ، أو تبوح به ســــرا لأبنائها وبناتها أو حتى لأقرب الصديقات الى قلبها . استبد الذهول بقدرتها على البكاء فتعاظمت لوعتها ، أما الأبناء فقد أصابتهم الصدمة بهزة عنيفة ضـــــربت بالخوف والتعاسة حياتهم فى مقتل ، وأصبحت الأسرة السعيدة بين يوم وليلة موضوعا مستباحا لأحاديث وتخمينات تنوعت ما بين الرثاء والشفقة. واطلاق الحكم والأحكام وتشعب التكهنات بباعث من حسن الظن أحيانا ومن سوئه فى معظم الأحيان .

— ٢ —

لم يصدق الطالب ما رآه واقعا أمام عينيه . الدكتور عاصم فى ملابس رثة يمسح العربات الواقفة على الرصيف فى مواجهة

مجمع الكليات . بيده « فوطة » صفراء وبين قدميه وعاء ملىء بماء متسخ . سارع الطالب الى زملائه فجاءوا مذهولين . يرقبون براعة الاداء وشدة الاتقان وهو يمسح احدى العربات باخلاص لا يعرفه المحترفون . بعد قليل جاء بعض زملائه من الأســــاتذة فتسمروا أمامه ليصبحوا جزءا من المشهد الصامت . لم يجرؤ احد على مواجهته بما يفعل أو حتى على محاولة التأكد من شــخصه لو كان فى الأمر شك .

ما أن انتهى الدكتور من مسح العربة حتى انتقل فى وقار وثبات الى غيرها حاملا وعاء الماء و « الفوطة » الصفراء . لم يعبأ بحضور صاحب العربة الأولى وانصرافه بعربته فى سرعة مخيفة وقد تحول بفعل ارتباكه من هول الموقف الى مصدر لسخرية الطلبة وباعث لضحكاتهم المكتومة .

توالى حضور أصحاب العربات من الطلبة والأساتذة والحال لا يتغير الا بالانتقال من عربة الى أخرى . تشــجع زميل عمره مقتربا منه فى حذر وحنان :

ــ يا دكتور عاصــــم

نظر اليه بثبات لا تبدو من ورائه امارات انفعال من أى نوع وقال له :

ــ نعم

ــ أرى أن هذه التجربة المثيرة قد انتهت ، وآن الأوان أن تعود الى بيتك وعملك ثم تحدثنا بعد ذلك عن النتائج .

قال متفهما للباقة الزميل ومحبته :

ــ ياسيدى انا لا اقوم بتجربة . أنا اعمل ماسحا للعربات

— والفلســـــفة ؟؟؟

— تركتها لك يا دكتور سليم أنت وبقية أعضاء الهيئة

— ان كان لابد من تركها ، فلماذا هذا البديل التعس ؟

— لأنه واحد من مئات البدائل التى تحقق نفعا مباشـــرا ملموسا للناس ، ولو تماديت فى الأسئلة سأقسو عليك . ارحل بعربتك وسأقبل ما تدفعه ، ولن أعترض ان لم تدفع شيئا .

تمهل الدكتور سليم قبل أن يتكلم ، فحالة زميله غير مسبوقة، خاصة وأنه متماسك الأعصاب صحيح المنطق شديد الاقتناع بما يقول ويفعل . ترى هل جن الدكتور عاصم ولماذا ؟ .. لقد تزوج من زميلتنا راوية بعد قصة حب لم تخف على احد، وانجبت له البنين والبنات ، وحين طلب منها أن تتفرغ لبيتها لم تعترض .. أما الأبناء فلم يخيبوا ظنه فى دراستهم فنجحوا وتفوقوا وتخرج أكبرهم فى الجامعة هذا العام .

— ٣ —

ها هو زميل العمر يسقط فجأة فى غموض محير ، وكأنه كائن آخر غير عاصم الذى عرفناه فى شبابنا عاشـــــقا للعقل والمعرفة محبا للحياة وللناس بلا حدود . أهكذا تكون النهاية ؟ . تاريخه فى الكلية يدعو الى الفخر . كان دائما أسبقنا الى الترقية بفضل أبحاثه المتجددة . لم يقع ما يكدر صفو علاقته بزميل أو معيد أو حتى موظف بالادارة . لم تتجاوز المسألة فى هذا الشأن أو ذاك حدود خـــــلافات العمل الوقتية التى لا تلبث أن تزول مصحوبة بابتسامة مشرقة من وجهه الوسيم .

اذن فالبيت والعمل خارج مجالات الظنون المحتملة لو قلنا ان الدكتور عاصم قد جن بالفعل وهكذا لا يبقى الا عالمه الخاص الذى لا يعرف احد اسراره سواه .

ــ الا ترى أن الفلسفة تحقق نفعا على الاطلاق ؟

ــ منذ متى ونحن ندرسها للطلبة ؟

ــ منذ حوالى ربع قرن

ــ وهل عميت يا سليم ؟

ــ عفوا ، لست أفهمك

ــ الا ترى ما حولك ؟ .. انه حصاد الفلسفة

تلفت سليم حوله يمينا ويسارا مدعيا أنه لم يفهم مقصده ثم قال بلطف :

ــ أرى تلاميذك يناشدونك العودة

استفزه ادعاء زميله وانكاره لحقيقة يراها ساطعة كالشمس .. ولأول مرة تنطلق شرارات غاضبة من عينيه .. بدا التقلص على عضلات وجهه وأشاح بيده فى عصبية صارخا بصـــــوت مزلزل :

ــ الا ترى ما حولك يا أعمى ؟

ــ ٤ ــ

انقضت الكارثة بعينها على سكان العمارة بعد مضى ساعات على ظهور الدكتور عاصم أمام مجمع الكليات . نقل نشاطه فجأة الى « الجراج » العمومى الذى لا يبعد أكثر من خطـــــوات عن مســـــكنه .

ما أن بدأ يمارس عمله باتقـــانه المعهود حتى انهار عامل « الجراج » فى البكاء والولولة ناشرا الخبر بين الســكان . لم تشفع دموع الزوجة ولا توسلات الأبناء والجيران أن يترك عاصم الوعاء و « الفوطة » ويعود الى شقته وهيبته .

بعد أن باءت جميع المحاولات بالفشل تصدى عرنوس بك ساكن الدور الأول بالعمارة وأبرز شخصياتها لحل المشكلة على مسئوليته على الا يتدخل أحد بينهما . ورغم اعتراض البعض الا أنه تقدم نحوه فى كبرياء وثقة ، قائلا بلهجة عسكرية آمرة :

— دع ما بيدك فورا واتبعنى الى قسم البوليس

— ما التهمة وما صفتك التى تأمرنى بها ؟

— لا جدل ، اتبعنى والا أرسلت جنديا يقتادك بسلسلة .

— تأدب فى مخاطبتى يا عرنوس .

— ومن أنت يا ماسح العربات حتى أتأدب فى مخاطبتك ؟

برقت العيون بالأمل اذ اســـتغل عرنوس بك دهاءه فى استفزاز الدكتور عاصم حتى يعود لنفسه ويتشبث بكيانه المهدد بالضياع دون مقابل . واصل عرنوس تحديه صائحا بقوة :

— من أنت ؟ .. تكلم

راح عاصم يتأمله فى شرود تحول بالتدريج الى ابتسامة ساخرة فضحكة يائسة خافتة ولم يجبه .

— تكلم أو أبعث بك الى مستشفى المجانين .. من أنت ؟

أخيرا قال بهدوء وبغير أن يتخلى عن ابتسامته الساخرة :

— أنا عاصم عبد الرحيم

ــ ما هى مهنتك ؟

ــ مادمت قد اعطيت نفسك حق اســـتجوابى فانا الآخر اعطيت نفسى هذا الحق ٠

تبدد الأمل وماجت الهواجس بعقول الحاضـــرين ٠ توجس البعض شرا خاصة أولئك العالمين بخفايا عرنوس بك وأسرار ثرائه الشديد وسطوته العارمة وقدرته الفائقة على البطش بمن يريد ٠ قال ساخرا :

ــ تريد استجوابى اذن ٠٠ هات ما عندك

ــ عندى سؤال واحد لو اجبت عنه سوف أفعل ما تطلبه منى ٠

اهتز ثبات عرنوس وتلفت حوله مخفيا خوفه مســـــتسمحا الحاضرين فى تركهما على انفراد تحسبا للمفاجآت ٠

لكن عاصم قال فى حسم :

ــ أشترط بقاء السكان

ساد صمت مشحون بالقلق ، وصاح أحد الجيران :

ــ دعه يسأل ما يشاء ياعرنوس بك ٠٠ لعل الله يهديه ٠

سرت همهمات التأييد من الجمع ومازال عرنوس صامتا ٠ تجلت علامات الانتصـــار فى نظرات عاصم أمام تخاذل عرنوس وتردده فصاح مستفزا اياه :

ــ هاه ٠٠ أسأل ؟

قال عرنوس يائسا :

ــ اسأل

ضحك عاصم مقهقها . انتقلت عدوى الضحك بين الجميع وظلت سارية حتى قال عاصم فى جدية مشيرا الى الجمهرة التى تزايدت من السكان والجيران .

ــ السؤال غير موجه اليك ياعرنوس . انى أوجهه لهؤلاء الأغبياء .

استطاع عرنوس أن يتنفس ، ولكن مالبث عاصم أن قال مشيرا بسبابته الى أنف عرنوس :

ــ كيف تتركون كل السكان وتفوضون هذا الوغد ليفصل فى أمرى وكلكم تعلمون أمره ؟

ــ ٥ ــ

قال الطبيب الكبير :

ــ الدكتور عاصم فى كامل قواه العقلية والنفسية والجسمانية .

تساءلت الزوجة فى لهفة :

ــ فكيف يعود كما كان ؟

ــ لايستطيع الطب الاجابة .

ــ وماذا يمكننا أن نفعل ؟

ــ صلوا لأجله .

* * *

لحـــم العيـــد

كعادتى منذ آثرت الوحدة ، جلســــت ـــ فى انتظار آذان المغرب ـــ بأحد المقاهى المجاورة لمسجد سيدى جابر . اشعلت سيجارة وامعنت فى شرودى الدائم الذى لم يعد له مبرر سوى أننى اعتدته واحببته وتمنيت ادمانه .

اقترب منى كهل اشعث ذو لحية متسخة وعينين زائغتين . تغطى جلبابه الممزق سترة بالية يستعصى لونها على الوصف . يضع فى قدميه مزقتين جلديتين لا تمت ملامحهما بصلة الى عالم الاحذية .

فى البداية شعرت بالتقزز من هيئته وخشيت ان يجلس بجوارى فيصيبنى مكروه أو تنتابنى حالة ايجابية من القرف تبدد شرودى المعشوق .

سقط ذلك الحطام الانسانى من داخله على خارجه مباشرة فوق مشاعرى ليدفعها نحوه بمزيج من الاشفاق والتعاطف ، لم يخل من رغبة دفينة فى استطلاع خبيئة أمره ، حتى أننى تمنيته فى النهاية ان يختار مقعده بالقرب منى ، أما الشرود فاستعادته ميسورة بعد ذلك .

فوجئت به يجلس أمامى على الأرض ثم يقوم فجأة وفى نفس اللحظة ليجلس على المقعد الملاصق لمقعدى مباشرة . نظر الى متأملا — لا مستأذنا — وفى لمح البصر تحول عنى شاخصا نحو الشجرة الكبيرة الشديدة الخضرة القائمة على باب المسجد .. كانت السماء تموج بمصـــــهور من الألوان الداكنة المؤذنة بقرب الغـــروب .

سأله أنور بيأس شديد :

— نعم ؟

— شاى

— الفلوس

أخذ يعبث فى ثقوبه المهترئة مخرجا من كل جيب قطعـــــة معدنية ثم ألقاها جميعا فى يد أنور قائلا ببراءة :

— كل ما معى . هه .

نظر أنور — فى يأس أشد — الى العملات الفضية التى كان واضحا أنها دون قيمة المشروب . وضعها فى جيبه متمتما لنفسه بأحرف غامضة ، ثم أصدر اليه الأوامر الأربعة التالية بتحديد قاطع .

— اقعد هنا ولا تتحرك وأشرب الشاى وامش على طول .

لكثرة ترددى مؤخرا على هذا المقهى تبين لى أن الصـــــبر والصمت هما السمتان الأساسيتان لشـــــخصية أنور التى تذكرنى دوما بالجمل العربى . ولست أدرى حقا كيف يمكنه بغير التحلى بهذه الصــــفات أن يتحمل التعامل اليومى مع زبائن من بينهم المجاذيب واللصوص والمتسولين والمشردين ، ومن بينهم أيضا من هم مثلى من عباد الله الهامشيين الذين لا يراهم المجتمع — حين

يقتضى الأمر فقط — الا من خلال عين مجهـرية ذات قوة تكبير خيالية .

جاء أنور بالصينية وعليها كوب الشاى وبه الملعقة وبجواره كوب من الماء المثلج كما هو الحال مع أى زبون . كنت أرقب ذلك الشارد بطرف عينى وهو يقلب السكر فى كوب الشاى بسرعة جعلت ما يقرب من ثلث الكوب ينسكب على الصينية ، وكنت على ثقة من أن ما يحدث فى العالم كله — مثلما يحدث أمامى الآن — لا يعنينى بالمرة فى شىء . نظر الى فجأة ليسألنى بنبرة من يعرف الاجـــابة .

— الماء يكمل الناقص ؟

هززت رأسى مؤيدا — فى تردد — وقرون استشعارى فى ذروة يقظتها ، دون أن يتبدد شرودى تماما .

أضاف الماء برعونة فامتلأت كوب الشاى عن آخرها وفاضت من جديد دونما أدنى اهتمام من جانبه بما يحدث . أما أنا فقد أوشـــكت مرارتى يوما على الانفجار لولا الالهـــام والاســـتغناء والشرود ، أما الطب فلم يأت معى بنتيجة .

بدأ يشرب محلول الشاى المخفف مع اصــراره على ابقاء الملعقة بداخل الكوب أثناء الشرب . التفت الى فجأة وقال كمن ينبهنى الى حدث خطير :

— اللحمـــة ..

— نعم ؟

— يوزعونها فى عيد الضحية بعد يومين ان شاء الله

— آه .. كل سنة وأنت طيب

كانت رائحة الشواء منبعثة من الرصيف المقابل للقهوة ككل يوم . عربة صغيرة امامها موقد فحم يقف امامه شاب سمين لدرجة الاستدارة الكاملة . يقوم وحده بالعمل كله وخوف شديد مجهول آخذ بملامحه وانفاسه وحركاته ، حتى وهو يتفحص من تحت عينيه باهتمام زائد مؤخرات النساء اللاتى يعبرن الطريق .

بجوار العـربة يجلس « أبو جابر » ولا يفارق مقعده الا لضرورة قصوى . ترتسم على وجهه علامات هم وغم وغضب لم تنحسر عنه يوما واحدا منذ اعتدت الجلوس الى هذا المقهى . عمله الوحيد هو تسلم الفلوس من جابر الذى يحاسب الزبائن ويوقد الفحم ويقطع اللحم ويزنه ويشويه ويضعه فى الأرغفة ومعه قرطاس من السلطة .

— ايوووه .. انا أموت فى اللحمة . مقاس رجلى اربعة . عندك مداس ؟

— انت رجل طيب يا ...

— حسـن ..

ناديت أنور . أعطيته جنيها . نظر الى مستفسرا دون أن يتكلم

— هات رغيف من عند « أبو جابر » .

ما ان استدار أنور حتى صاح حسن آمرا اياه بلهجة عسكرية واثقة :

— هات كفته

— حاضـر ..

تأملنى حسن بعينين تفيضان بشجن غامض شدنى الى ماض سحيق . أخرج من جيبه ورقة متهالكة بها بقايا اقراص طعمية .

قضم قطعتين تساقط معظمهما فى كوب الشاى ، ثم وضع الورقة ببقية محتوياتها فى جيبه من جديد .

— كم عمرك يا حسن ؟

— اربعـــــــة ..

— اتسكن هنا فى سيدى جابر ؟

استدار قليلا عن جلسته وراح يحدثنى بجانبه . ينظر الى تارة والى الأفق الدموى البعيد تارة . كنت أبذل أقصى ما لدى من جهد حتى أستطيع التوصل الى أى خيط يجمع بين شتات حديثه المتتــــابع .

— ضابط كبير . رتبة . جسمه جسم بغل . البنت سقطت من القطار . ضرب نار . نزلت فى المطار . اعطونى علقة . مالى انا بالناس ؟ .. قلت لها اقعدى فى البيت . اقعدى فى البيت يا بنت الكلب . دمه ساح قدامى . خمســـة وعشـــرين سنة . مظاهرة كبيرة . خمسين مليون .. ياجاه النبى . انا آكل الحديد . اشتغل بشرف وجدعنة . يلزمنى اعيش . هو حر . غنى مبسوط وارث هو حر . شأنى ايه ؟ . ربك كريم . منه لله . منه لله .. منكم لله يا شيخ .

حين اشركنى فى تحمل مسئوليته اشعلت له سيجارة متمنيا لابتسامتى أن تكتمل . أدخل اكثر من نصف السيجارة فى فمه . سال لعابه على ورقها وراح يسحب أنفاسها فى تواصـــل حتى سقط نصفها على الارض . التقطه ووضعه فى كوب الشاى . أخذ يقلب ما تبقى فى الكوب من شاى وماء وطعمية وتبغ محترق ، والقى ببقية السيجارة على الأرض وداس عليها بقوة .

فجأة صاح رواد المقهى ابتهاجا بهدف كروى شاهدوه فى التليفزيون الذى يتصدر موقعا علويا بالمقهى بينما انبعث — من الراديو — بموقع مجاور صوت بلورى متوهج لمنشدة شعبية تغنى :

« عمرانه يابوابه وأصحابك طيبين »

« راحوا يزوروا النبى ورجعوا سالمين »

وقفت ممسكة بملاءتها لتخفى جانبا من وجهها . لمحها أنور فأسرع نحوها . همست بكلمات جادة . هز رأسه علامة قرب نفاد صبره ثم أخرج من جيبه عدة جنيهات أعطاها لها وانصرفت على الفور . خمنت أنها زوجته رغم أن ما يحدث من حولى لا يعنينى فى شىء . جعلنى الاستغراق فى لا شىء لا أهتم بالتمييز كثيرا بين الضجيج والهدوء . وحتى حين أطفو بين الحين والآخر يظل الحال هو الحال .

جاء أنور حاملا رغيف الكفتة الصغير . وضعه أمام حسن وانصرف بجموده المعتاد . انتظرت أن ينقض حسن على الرغيف ، لكنه أهمله وكأنه لم يره نهائيا .

— كل يا حسن .

— لكن كله الا الظلم . أنا كسرت دماغه قراقيش . ياما قلت لها اقعدى فى البيت . نسوان يعنى مصايب . انت فاهم . هه .. لو كان عندى منها عيل كان شوى لى لحمة . أنا قلت لك مقاسى أربعة . بيتى مفتوح لكل فقير . حتى خوفو كان مكتبه « مفتوح » للشعب .. آه ياكلاب !

كان أنور مثلى الأعلى فى حيادى الخارجى فى تلك اللحظات

.. أما انشغال قلبى بين الحيرة والغضب والاستسلام والأمل فقد أوكلته الى الله .

انشقت الأرض فجأة عن صبى وسيم لا يزيد عمره عن عشر سنوات . لا ينم ملبسه عن فقر أو حاجة . انقض على المائدة وخطف الرغيف وجرى بســـــرعة مذهلة فى اتجاه المسجد مختفيا بين احد دهاليزه . كان أبو جابر واقفا يؤنب أنور لأنه تأخر فى احضـار تعميرة معسل ، وأنور ينظر اليه بلا عينين ، ويستمع بلا أذنين .

فوجئت بأبى جابر يقطع حواره مع أنور ويندفع مسرعا وراء الصبى . بدت الحسرة على وجه حسن . طمأنته قائلا :

ـــ لا يهمك يا بو على . أجيب لك غيره حالا .

بدأ الراديو يذيع نشرة الأخبار فسارع أنور بتغيير المحطة بعصبية خفية ، حين ظهر الصبى فى أقصى الميدان يجرى مسرعا وهو يقضم الرغيف بشراهة وأبو جابر يطارده صائحا :

ـــ أمسكوا الحرامى .

قال حسن بهدوء شديد :

ـــ الملك كان يحب اللحمة

ثم وقف محركا يديه بقبضتين مضمومتين هاتفا :

ـــ يعيش جمال عبد الناصر ..

امام المقهى مباشـــــرة كان الصبى يجرى فى اتجاه معاكس وبيده الرغيف الذى اقترب من نهايته وأبو جابر يهرول من خلفه وقد تقطعت انفاسـه ، وأخيرا عـاد الى عربتـه صائحا فى جابر السمين الخائف :

ـــ اشتغل يا جبان يابن الحمار .

قال حسن محدثا نفسه بصوت شديد الخفوت :

ـــ كل سنة وانتم طيبين .

ثم قام متسللا فى هدوء إلى الشجرة . تمدد تحتها على الأرض . وضع نعليه تحت رأسه وأعطى ظهره للكون .

اذن لصـــــلاة المغرب فغادرت المقهى متجها فى آلية الى المســــجد ..

* * *

مســـائل الحيـــاة

— ١ —

بلا أدنى انفعال قال لى الناشر المعروف ، وقد لاحظت أن أذنيه طويلتان :

— كتابك رائع يا أستاذ لكنى لا أستطيع نشره فأنا تاجر ، واسمك وموضوعك لا يبيعان الآن .

قبل ايداع أبى مستشفى الأمراض النفسية ، كان يردد فى أيامه الأخيرة بمناسبة وبغير مناسبة :

— لن يبقى شىء فى النهاية ..

وقال لى ناشر آخر ذو أسنان سوداء مثرمة :

— سمها مافيا .. سمها ما شـــئت . لكن عليك باتباع شروط اللعبة مادمت راغبا فى نزول الملعب .

— ما أحطها من شروط ! .

— حتى الانحطاط أصبح مسألة نسبية فى عالم اليوم .

لم يكف أبى عن ترديد عبارته حتى مات . كنت الوحيد من بين أبنائه الذى يأخذ عبارته مأخذ الجد . وكان يقدر موقفى هذا

بنظرات ممتنة ، ولهذا خشيت ان آخذله بأن اسأله يوما ايضاح ما يعنى .

وباشفاق مقزز سألنى آخر :

— لماذا حكمت على عمرك بالحصار بين الكلمات ؟

خيل الى انه يبول على نفسه وهو جالس على مقعده الوثير بالمكتب الفخم . كنت أسمع بوضوح أزيز المرجل بين ضلوعى . لهذا تجاهلت سؤاله ، لكنه واصل التبول قائلا :

— كانت الدنيا أمامك جميلة .. لكنك لم تنتبه ..

كنت شديد الانتباه ، كلما ازداد انتباهى تذكرت كلمات ابى ، فتســـقط الثمار امامى ولا أجنيها ، وانما أعود الى عالم غفلتى الرائع .

***

كنت أخشى أن أموت قبل أن أبرر حياتى بفكر أقدمه لإسعاد الناس ، فكان اصرارى لهيبا حارقا انكوت به ذاكرتى وتصلبت شرايينى ، حتى عرفنى الناس وراحوا يقرءون ما كتبت ويفكرون فيما أقول ويتفاعلون به .. وأشعر بالرضا . ثم شيئا فشيئا يتبدد هذا الشـــعور حتى يزول وتنعدم أهميته . وأتذكر كلمات أبى فأتساءل :

— وماذا يبقى بعد ؟

فأجيب : هذا ما ينبغى أن أتدبر فى أمره الآن .

— ٢ —

« يا حبيبة عمرى ، ما كنت يوما بعيدة عن قلبى مهما طال الزمان او بعد المكان . فأنت كنز الحب الغالى الذى عثرت عليه لحظة ان اوشك قلبى على الافلاس » .

ــ الى وحدى كتبت هذا الكلام ؟

« وأنت نبع الماء الزلال الذى تفجر فى طريقى حين أوشك الظمأ أن يفتك بروحى .. وأنت الآية التى بيقينها أدركت محبة الله لى ، وقد كنت أظن أن غفرانــه يســتعصى على طيشى وجنــونى وتمردى » .

ــ كنت على يقين من ذلك ..

ــ فما الذى حدث ؟

« فليحفظك الله ياحبيبتى من كل سوء ، وليغفر لى أننى لم أحبك منذ لحظة مولدى » ..

ــ أبهذه البساطة تجاهر بخياناتك وأنا من أفنيت عمرى فى حبك ؟

ــ ماذا بيدى أن أفعل ؟ أنا نفسى لا أصدق ما حدث ..

لكنه قد حدث بالفعل ، فسبحان مقلب القلوب بما يعجزنا عن تفسير أى تقلب بعد ثبات أو زوال بعد بقاء .

***

استجلبت دهشــة أطفال الدنيا وقدرتهم على الانبهار حتى أستطيع أن أصدق . تشتتت فى ضميرى مفاهيم الكلمات الصعبة كالحب واليقين والدوام والزوال والفناء .

وفى الجعبة كانت النهود عجفاء والعيـــــون ذابلة والجلود منكمشــة والنبضات خافتة .. حملتها على ظهرى ورحت أغنى فى استسلام كما لو أن شيئا لم يحدث .

وكان لابد أن أعود الى كهولتى وأستعيد عجزى عن الدهشــة وفقدانى القدرة على الانبهار ، حتى أستطيع أن أتدبر فى أمر هذه المسألة أيضا من جديد .

ـ ٣ ـ

رغم أنى لم ألجأ اليه من قبل ، الا أننى كنت احسبه رصيد أمان استراتيجيا ومصدر طمأنينة لا شك فيه لو فاجأتنى غائلة من غوائل الزمن المباغتة . وحين دعا الداعى توجهت اليه حاملا فى جعبتى مخزون الأمان والطمأنينة الذى تراكم على مدى أكثر من أربعين عاما . غير أن هاتفا حذرنى أمام مدخل الحديقة الشاسعة المؤدية الى بيته . قال لى :

ــ خفف كثيرا مما فى جعبتك حتى لا تنكسر رقبتك .

تعجبت من نفسى وتجاهلت سمعى وسحقت ظنى . تقدمت بين الزهور بلا تردد حتى وصلت فى خيلاء الى عتبة الدار ، وبثقة بالغة صـــــعدت الخطوة وراء الخطوة وضـــغطت جرس الباب فاستقبلنى الخدم كما يستقبلون ضيفا عاديا ، رغم أننى غير عادى فهذا عين حالى فى مقامى كما ينبغى أن يكون .

جاء أخى الأصغر متهللا مستبشرا بقدومى وان بدت فى عمق عينيه علامات تساؤل لم أسترح لها كثيرا ، حين قال لى الهاتف متشفيا بسرعة البرق :

ــ ألم أحذرك من قبل ؟ . حافظ على رقبتك يا خفيف .

لم يكن أمامى سبيل للتراجع ، كما لم يكن له مبرر ملموس ، فاحتياجى شديد ومفاجىء لمبلغ من المال لا يشكل بالنسبة لشقيقى قطرة فى نهر . ويقينى أن مليونيرا من أى جنس ودين ولون ولغة لن يتردد لحظة فى المبادرة بتقديم العون لأخيه المحتـــــاج حتى لا يضعه فى موقف السائل له أو لغيره .

* * *

واجهت صعوبة هائلة فى الاهتداء الى بيتى .. وكنت قد وضعت رقبتى وما فوقها بداخل الجعبة بين الطمأنينة والأمان .. رشقنى الأطفال بالطوب وصفعونى على مؤخرتى ، وما أن وصلت بمساعدة بعض الناس الطيبين الى باب دارى حتى تبين لى أن جعبتى مليئة بالثقوب ، وأن أشياء عديدة كانت تتساقط منها دون أن أدرى .

وكان لابد من اعادة رقبتى الى مكانها حتى أتدبر هذا الأمر من جـــــديد .

— ٤ —

بالمطار بقايا أزمنة فى طريقها الى الزوال بلا باقٍ . بدايات على الأجنحة ونهايات بين السحب وأمنيات على الأرض تتسربل بالغيب . بعض الرائحين لا يعودون وبعض المترقبين يلعقون دموع الحنين أو يسكبون دموع الفرحة .. أما الطائرة فمعلقة بين الحياة والموت .. فلماذا أتألم لفراق كائن يتشكل وجوده من جسد غير جسدى وروح غير روحى حتى ولو كان ابنى ؟ .. لماذا لا يهاجر أينما شاء ليبدأ دورة حياة انسانية جديدة مستقلة رغم تكرارها الأبدى ؟ .

قالت لى أمه فى لوعة :

ــ كنت أحسبه سيبقى لنا سندا فى شيخوختنا

ــ كم حسبنا وأخطأنا ، وليست هجرته نهاية العالم .

ــ أحيانا أتصور أننى لن أراه مرة أخرى وكأنه قد مات .. مات ..

ــ اذكرى الله

من قبله بعام واحد كان فراق اقرب الأصـدقاء الى قلبى وعقلى . تعجبت فى البداية كيف سيحتمل الغربة فى مثل هذا العمر لأجل المال . وفى النهاية لم يكن أمامى الا أن اكف عن دس أنفى فى حياة غيرى .

بقيت مكتئبا لعدة أسابيع بعد سفره . اجلس فى المقهى الى مائدتنا المعتادة ادخن النرجيلة وحدى وأنظر فى بلاهة الى مقعده الخالى وكأنى فقدت نصف عمرى . يقتلنى الشعور بالوحشة الى تلك العلاقة الرحيمة التى يتبادل فيها انسانان أعلى درجات الفهم والمودة فى لحظات الصمت والكلام .

* * *

سوف أجلس اليوم على أى مقعد الى أية مائدة بأى مقهى . وسوف يجلس أى صديق فى مواجهتى . لكن حديثى معه اليوم قد يخلو من الضحك والمسامرة لأننى بحاجة الى مناقشته فى مسألة جوهرية أنوى اعادة النظر فى شأنها من جديد .

— ٥ —

لم تسفر اعادة النظر فى كل تلك المسائل من جديد ، فسلطان الزوال مستبد يقصف الرقاب ويبقى كتب أصـحابها على رفوف خشـبية . كما لم يأت التدبر فيما حيرنى من أمور بنتيجة يمكن الارتكان اليها ، فأنياب الزوال طويلة متوحشة تنهش فى قلوب المحبين ولكنهم لا يأبهون ، ولا يريدون أن يصدقوا أن فكرة الحب الباقى أمر فوق قدر الانسان وقدراته .

خشيت أن يسرقنى الوقت فنظرت فى ســـــاعتى . كانت العقارب تدور بسرعة غريبة يستحيل معها قراءة ما مضى وما تبقى .. ولم اعرف حين عدت شقيقى يوما لماذا كانت الحديقة جرداء والمنزل خاويا ولم أسمع زقزقة عصفور واحد. تراءى لى طيف أبى فتذكرت ان ابنى لم يبعث الى برسالة منذ أكثر من عام ، وجاء من اكد لى أن صديقى المهاجر قد مات وأن هجرته كانت وراء امرأة احبها ظانا أن شبابها المتفجر سيعيد اليه شبابه المنكوس مثلما ظننت أن كتبى ستهز الانسانية هزا جذريا .

وقبل دخولى المسجد مخلفا السراب من ورائى ، لم أكن أدرى أيهما أفضل حالا ، السعيد الغافل ، أم التعس الذى يعرف .

* * *

الفهـــرس

رقم الايداع ١٩٩٥/٩١٨٢
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 4549 — 1

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب